رسالة

آداب سلوك المريد

لشركة الوابـل الصَّـيِّب
للإنتاج والتوزيع والنشر

ت: 01208303901
01147208173

الطبعة الأولى
1439هـ - 2017م
رقم الإيداع:
2017/25803
الترقيم الدولي .I.S.B.N
978-977-6214-71-2

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

رسالة آداب سلوك المريد، الحبيب عبدالله بن علوي الحضرمي الشافعي.
ومعها: عنوان التوفيق في آداب الطريق، ابن عطاء الله السكندري.
الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر، القاهرة، 2017م.
76ص، 21سم
تدمك 2-71-6214-977-978
1) الآداب الإسلامية.
2) التصوف الإسلامي
212

الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر
تراثنا .... أمانة في أعناقنا

رسالة

آداب سلوك المريد

للإمام شيخ الإسلام قُطْب الدعوة والإرشاد

الحبيب عبد الله بن عَلَويّ الحَدَّاد الحَضْرَمِيّ الشَّافِعيّ

رَحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحَمْدُ لِلّٰه الَّذِيْ جَعَلَ العُلَمَاءَ وَرَثَةَ الأَنْبِيَاءِ، وَجَعَلَ مِنْهُمْ أَدِلَّةً يَهْدُوْنَ إِلَىٰ سَوَاءِ السَّبِيْلِ، وَالصَّلَاْةُ وَالسَّلَاْمُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ، الَّذِيْ عَلَّمَهُ رَبُّهُ عِلْمَ الأَوَّلِيْنَ وَالآخِرِيْنَ، وَجَعَلَهُ مِصْبَاحًا مُنِيْرًا تَسْتَنِيْرُ بِنُوْرِهِ عُقُوْلُ وَقُلُوْبُ المُؤْمِنِيْنَ.

أَمَّا بَعْدُ، فَهَذِهِ رِسَالَةٌ وَاضِحَةُ المَبَانِيْ، عَمِيْقَةُ المَعَانِيْ، تُبَيِّنُ لِلسَّالِكِ عَلَىٰ طَرِيْقِ القَوْمِ الآدَابَ الَّتِيْ يَجِبُ عَلَيْهِ التِزَامُهَا وَالتَّمَسُّكُ بِهَا كَيْ يَكُوْنَ سَيْرُهُ إِلَىٰ مَوْلَاهُ مُوَصِلًا إِلَىٰ مُنْتَهَاهُ، وَمَجْهُوْدُهُ مُثْمِرًا وَمُرْضِيًا لِرَبِّهِ.

وَمُؤَلِّفُ الرِّسَالَةِ، الإِمَامُ عَبْدُ الله بْنِ عَلَوِيِّ الحَدَّادِ، شَرِيْفٌ عَلَوِيٌّ يَنْتَمِيْ إِلَىٰ ذَلِكَ الفَرْعِ مِنْ فُرُوْعِ السَّادَةِ الحُسَيْنِيِّيْنَ المُسَمَّىٰ بِآلِ أَبِيْ عَلَوِيْ، الَّذِيْ يَرْجِعُ إِلَىٰ الإِمَامِ عَلِيٍّ العُرَيْضِيِّ بْنِ الإِمَامِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ رضي الله عنه. وَهُمْ أَشْرَافٌ، عَقِيْدَتُهُمْ سُنِّيَّةٌ،

وَمَذْهَبُهُمْ فِيْ الأُصُوْلِ أَشْعَرِيٌّ، وَفِيْ الفُرُوْعِ شَافِعِيٌّ، وَسُلُوْكُهُمْ صُوْفِيٌّ عَلَىٰ نَهْجِ الإِمَامِ الغَزَالِيِّ. وَقَدِ اسْتَوْطَنُوْا حَضْرَمَوْتَ مُنْذُ القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْرِيِّ، وَكَرَّسُوْا أَوْقَاتَهُمْ لِلْعِلْمِ وَالعِبَادَةِ، فَخَرَجَ مِنْهُمْ وَلَا يَزَالُ الجِيْلُ بَعْدَ الجِيْلِ مِنَ الأَوْلِيَاءِ الصَّالِحِيْنَ وَالأَئِمَّةِ المَهْدِيِّيْنَ، الدُّعَاةِ إِلَىٰ الخَيْرِ وَالسَّائِرِيْنَ وَأَتْبَاعِهِمْ عَلَىٰ نَهْجِ سَيِّدِ المُرْسَلِيْنَ صلى الله عليه وآله وسلم.

وَالإِمَامُ عَبْدُ اللهِ الحَدَّادِ رضي الله عنه إِمَامٌ جَامِعٌ وَقُطْبٌ رَبَّانِيٌّ، جَاءَهُ الفَتْحُ الكَبِيْرُ فِيْ شَبَابِهِ وَصَارَ مُرْشِدًا لِلْقَوْمِ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِ مَوْلَاهُ بِالحِكْمَةِ وَالتَّمْكِيْنِ، وَظَهَرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الكَرَامَاتِ مَا لَا تَحْتَوِيْهِ المُجَلَّدَاتُ، وَأَطْلَقَ عَلَيْهِ عُلَمَاءُ وَقْتِهِ لَقَبَ قُطْبَ الإِرْشَادِ، وَقَالُوْا عَنْهُ: إِنَّهُ مِنْ مُجَدِّدِي القَرْنِ الثَّانِيَ عَشَرَ الهِجْرِيِّ. وَقَدْ سَلَكَ عَلَىٰ يَدَيْهِ الجَمُّ الغَفِيْرُ مِنَ المُرِيْدِيْنَ، فَكَانَ مِنْهُمُ الأَوْلِيَاءُ وَالصَّالِحِيْنَ وَأَئِمَّةُ الدِّيْنِ، وَلَا زَالَ مَنْهَجُهُ غَضًّا طَرِيًّا يَخْرُجُ ثَمَرُهُ كُلَّ حِيْنٍ.

فَهَذِهِ الرِّسَالَةُ إِذَنْ مِنْ قَلَمِ عَارِفٍ مَكِيْنٍ، سَلَكَ الطَّرِيْقَ حَتَّىٰ غَايَتِهِ وَسَبْرِ أَغْوَارِهِ، وَهِيَ عَلَىٰ اختِصَارِهَا شَمَلَتْ سَائِرَ مَا يَحْتَاجُهُ المُرِيْدُ مِنْ إِرْشَادَاتٍ، وَهِيَ لَيْسَتْ خَاصَّةً بِطَرِيْقٍ دُوْنَ طَرِيْقٍ، وَلَكِنَّهَا صَالِحَةٌ لِنَفْعِ كُلِّ مَنِ انْتَمَىٰ لِلتَّصَوُّفِ، مِنْ أَيِّ طَرِيْقَةٍ كَانَ.

نَسْأَلُ المَوْلَىٰ ﷻ أَنْ يَنْفَعَ بِهَا وَيَجْزِيْ مُؤَلِّفَهَا عَنَّا خَيْرَ الجَزَاءِ. وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

مصطفى حسن البدوي

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العَلِيّ العظيم

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِيْ يَقْذِفُ إِذَا شَاءَ فِيْ قُلُوبِ الْمُرِيدِيْنَ لَوْعَةَ الإِرَادَةِ، فيُزْعِجُهُم إِلَىٰ سُلُوكِ سَبِيْلِ السَّعَادَةِ، الَّتِيْ هِيَ الإِيْمَانُ وَالْعِبَادَةُ، وَمَحْوُ كُلِّ رَسْمٍ وَعَادَة، وَصَلَّى الله وَسَلَّمَ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ أَهْلِ السِّيَادَة، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ السَّادَةِ الْقَادَة، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِيْنَ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[الإسراء:18-19].

وَالعَاجِلَةُ هِيَ الدُّنْيَا، فَإِذَا كَانَ المُرِيْدُ لَهَا فَضْلًا عَنِ السَّاعِيْ لِطَلَبِهَا مَصِيرُهُ إِلَىٰ النَّارِ مَعَ اللَّوْمِ وَالصَّغَارِ، فَمَا أَجْدَرَ الْعَاقِلَ بِالإِعْرَاضِ عَنْهَا، وَالِاحْتِرَاسِ مِنْهَا، وَالآخِرَةُ هِيَ الْجَنَّةُ.

وَلَا يَكْفِيْ فِيْ حُصُولِ الْفَوْزِ بِهَا الإِرَادَةُ فَقَطْ، بَلْ هِيَ مَعَ الإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ، وَالسَّعْيُ الْمَشْكُورُ هُوَ الْعَمَلُ الْمَقْبُولُ الْمُسْتَوْجِبُ صَاحِبُهُ الْمَدْحَ وَالثَّنَاءَ وَالثَّوَابَ الْعَظِيمَ الَّذِيْ لَا يَنْقَضِيْ وَلَا يَفْنَىٰ بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ، وَالْخَاسِرُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ مِنَ الْمُرِيدِيْنَ لِلدُّنْيَا الَّذِيْ يَتَحَقَّقُ فِيْ حَقِّهِ الْوَعِيْدُ الْمَذْكُورُ فِيْ الآيَةِ هُوَ الَّذِيْ يُرِيْدُ الدُّنْيَا إِرَادَةً يَنْسَىٰ فِيْ جَنْبِهَا الآخِرَةَ فَلَا يُؤْمِنُ بِهَا، أَوْ يُؤْمِنُ وَلَا يَعْمَلُ لَهَا. فَالأَوَّلُ كَافِرٌ خَالِدٌ فِيْ النَّارِ، وَالثَّانِيْ فَاسِقٌ مَوْسُومٌ بِالْخَسَارِ.

وَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: **«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيْبُهَا أَوْ إِلَىٰ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»**.[1]

أَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ لَا عَمَلَ إِلَّا عَنْ نِيَّةٍ، وَأَنَّ الإِنْسَانَ بِحَسَبِ مَا

(1) متفق عليه.

نَوَىٰ وَيُجْزَىٰ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، فَمَن حَسُنَتْ نِيَّتُهُ حَسُنَ عَمَلُهُ لَا مَحَالَةَ، وَمَنْ خَبُثَتْ نِيَّتُهُ خَبُثَ عَمَلُهُ لَا مَحَالَةَ، وَإِنْ كَانَ فِيْ الصُّورَةِ طَيِّبًا كَالَّذِيْ يَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ تَصَنُّعًا لِلْمَخْلُوقِيْنَ.

وَأَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ مَنْ عَمِلَ لِلّٰهِ عَلَىٰ وِفْقِ الْمُتَابَعَةِ لِرَسُوْلِ الله ﷺ كَانَ ثَوَابُهُ عَلَىٰ الله وَكَانَ مُنْقَلَبُهُ إِلَىٰ رِضْوَانِ الله وَجَنَّتِهِ، فِيْ جِوَارِ الله وَخِيْرَتِهِ، وَأَنَّ مَنْ قَصَدَ غَيْرَ الله وَعَمِلَ لِغَيْرِ الله كَانَ ثَوَابُهُ وَجَزَاؤُهُ عِنْدَ مَنْ تَصَنَّعَ لَهُ وَرَاءَىٰ لَهُ مِمَّنْ لَا يَمْلِكُ لَهُ وَلَا لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوْرًا. وَخَصَّ الْهِجْرَةَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَعْمَالِ تَنْبِيهًا عَلَىٰ الْكُلِّ بِالْبَعْضِ؛ لِأَنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ عِنْدَ أُوْلِي الْأَفْهَامِ أَنَّ الإِخْبَارَ لَيْسَ خَاصًّا بِالْهِجْرَةِ بَلْ هُوَ عَامٌّ فِيْ جَمِيعِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ.

ثُمَّ أَقُولُ: اعْلَمْ أَيُّهَا الْمُرِيدُ الطَّالِبُ، وَالْمُتَوَجِّهُ الرَّاغِبُ أَنَّكَ

حِيْنَ سَأَلْتَنِي أَنْ أَبْعَثَ إِلَيْكَ بِشَيْءٍ مِنَ الْكَلَامِ الْمَنْسُوبِ إِلَيَّ لَمْ يَحْضُرْنِي مِنْهُ مَا أَرَاهُ مُنَاسِبًا لِمَا أَنْتَ بِسَبِيْلِهِ. وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُقَيِّدَ فُصُوْلًا وَجِيْزَةً تَشْتَمِلُ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ آدَابِ الْإِرَادَةِ بِعِبَارَةٍ سَلِسَةٍ، وَاللهِ أَسْأَلُ أَنْ يَنْفَعَنِيْ وَإِيَّاكَ وَسَائِرَ الْإِخْوَانِ بِمَا يُوْرِدُهُ عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ وَيُوْصِلُهُ إِلَيَّ مِمَّا هُنَالِكَ، فَهُوَ حَسْبِيْ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

فَصْلٌ في أن أول الطريق باعثٌ قويٌّ إلهيٌّ وأنه يجب تقويته وحفظه وإجابته

اعْلَمْ أَنَّ أَوَّلَ الطَّرِيْقِ بَاعِثٌ قَوِيٌّ يُقْذَفُ فِيْ قَلْبِ الْعَبْدِ يُزْعِجُهُ وَيُقْلِقُهُ وَيَحُثُّهُ عَلَىٰ الإِقْبَالِ عَلَىٰ اللهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، وَعَلَىٰ الْإِعْرَاضِ عَنِ الدُّنْيَا وَعَمَّا الْخَلْقُ مَشْغُولُونَ بِهِ مِنْ عِمَارَتِهَا وَجَمْعِهَا وَالتَّمَتُّعِ بِشَهَوَاتِهَا وَالاِغْتِرَارِ بِزَخَارِفِهَا.

وَهَذَا الْبَاعِثُ مِنْ جُنُودِ اللهِ الْبَاطِنَةِ، وَهُوَ مِنْ نَفَحَاتِ الْعِنَايَةِ وَأَعْلَامِ الْهِدَايَةِ، وَكَثِيْرًا مَا يُفْتَحُ بِهِ عَلَىٰ الْعَبْدِ عِنْدَ التَّخْوِيْفِ وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّشْوِيقِ، وَعِنْدَ النَّظَرِ إِلَىٰ أَهْلِ اللهِ تَعَالَىٰ وَالنَّظَرِ مِنْهُمْ، وَقَدْ يَقَعُ بِدُونِ سَبَبٍ.

وَالتَّعَرُّضُ لِلنَّفَحَاتِ مَأْمُورٌ بِهِ ومُرَغَّبٌ فِيهِ وَالاِنْتِظَارُ وَالاِرْتِقَابُ بِدُونِ التَّعَرُّضِ وَلُزُومِ الْبَابِ حُمْقٌ وَغَبَاوَةٌ. كَيْفَ وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِيْ أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلَا فَتَعَرَّضُوْا لَهَا»**.[1]

(1) المعجم الأوسط:ج3/ص180 ح2856.

وَمَنْ أَكْرَمَهُ اللهُ بِهَذَا البَاعِثِ الشَّرِيفِ فَلْيَعْرِفْ قَدْرَهُ الْمُنِيْفَ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ الَّتِيْ لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهَا وَلَا يُبْلَغُ شُكْرُهَا فَلْيُبَالِغْ فِيْ شُكْرِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ مَا مَنَحَهُ وَأَوْلَاهُ، وَخَصَّهُ بِهِ مِنْ بَيْنِ أَشْكَالِهِ وَأَقْرَانِهِ فَكَمْ مِنْ مُسْلِمٍ بَلَغَ عُمْرُهُ ثَمَانِينَ سَنَةً وَأَكْثَرَ لَمْ يَجِدْ هَذَا الْبَاعِثَ وَلَمْ يَطْرُقْهُ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ.

وَعَلَىٰ الْمُرِيدِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِيْ تَقْوِيَتِهِ وَحِفْظِهِ وَإِجَابَتِهِ -أَعْنِي هَذَا الْبَاعِثَ- فَتَقْوِيَتُهُ بِالذِّكْرِ لِلهِ، وَالْفِكْرِ فِيْمَا عِنْدَ اللهِ، وَالْمُجَالَسَةِ لِأَهْلِ اللهِ، وَحِفْظُهُ بِالْبُعْدِ عَنْ مُجَالَسَةِ الْمَحْجُوبِينَ وَالإِعْرَاضِ عَنْ وَسْوَسَةِ الشَّيَاطِينِ، وَإِجَابَتُهُ بِأَنْ يُبَادِرَ بِالإِنَابَةِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَيَصْدُقَ فِيْ الإِقْبَالِ عَلَىٰ اللهِ، وَلَا يَتَوَانَىٰ وَلَا يُسَوِّفُ وَلَا يَتَبَاطَأُ وَلَا يُؤَخِّرُ وَقَدْ أَمْكَنَتْهُ الْفُرْصَةُ فَلْيَنْتَهِزْهَا، وَفُتِحَ لَهُ الْبَابُ فَلْيَدْخُلْ، وَدَعَاهُ الدَّاعِيْ فَلْيُسْرِعْ وَلْيَحْذَرْ مِنْ غَدٍ بَعْدَ غَدٍ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَلْيُقْبِلْ وَلَا يَتَثَبَّطْ

وَلَا يَتَعَلَّلُ بِعَدَمِ الْفَرَاغِ وَعَدَمِ الصَّلَاحِيَّةِ.

قَالَ أَبُو الرَّبِيعِ رَحِمَهُ الله: سِيْرُوا إِلَى الله عُرْجًا وَمَكَاسِيْرَ، وَلَا تَنْتَظِرُوْا الصِّحَّةَ فَإِنَّ انْتِظَارَ الصِّحَّةِ بَطَالَةٌ. وَقَالَ ابْنُ عَطَاءِ الله فِيْ (الْحِكَمِ): إِحَالَتُكَ الْعَمَلَ عَلَى وُجُوْدِ الْفَرَاغِ مِنْ رُعُونَاتِ النُّفُوسِ.

فَصـــل في التوبة وشروطها والاحتراز من الذنوب كلّها

وَأَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ الْمُرِيدُ فِيْ طَرِيْقِ الله تَصْحِيْحُ التَّوْبَةِ إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ مِنْ جَمِيْعِ الذّنُوْبِ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَظَالِمِ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ فَلْيُبَادِرْ بِأَدَائِهَا إِلَىٰ أَرْبَابِهَا إِنْ أَمْكَنَ وَإِلَّا فَيَطْلُبُ الإِحْلَالَ مِنْهُمْ، فَإِنَّ الَّذِيْ تَكُونُ ذِمَّتُهُ مُرْتَهِنَةً بِحُقُوْقِ الْخَلْقِ لَا يُمْكِنُهُ السَّيْرُ إِلَىٰ الْحَقِّ.

وَشَرْطُ صِحَّةِ التَّوْبَةِ صِدْقُ النَّدَمِ عَلَىٰ الذُّنُوْبِ مَعَ صِحَّةِ الْعَزْمِ عَلَىٰ تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَيْهَا مُدَّةَ الْعُمْرِ، وَمَنْ تَابَ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الذّنُوبِ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَيْهِ أَوْ عَازِمٌ عَلَىٰ الْعَوْدِ إِلَيْهِ فَلَا تَوْبَةَ لَهُ.

وَلْيَكُنِ الْمُرِيدُ عَلَىٰ الدَّوَامِ فِيْ غَايَةٍ مِنَ الِاعْتِرَافِ بِالتَّقْصِيْرِ عَنِ الْقِيَامِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ رَبِّهِ، وَمَتَىٰ حَزِنَ عَلَىٰ تَقْصِيْرِهِ وَانْكَسَرَ قَلْبُهُ مِنْ أَجْلِهِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ الله عِنْدَهُ؛ إِذْ يَقُولُ سُبْحَانَهُ: أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي.

وَعَلَىٰ الْمُرِيدِ أَنْ يَحْتَرِزَ مِنْ أَصْغَرِ الذُّنُوْبِ فَضْلًا عَنْ أَكْبَرِهَا

أَشَدَّ مِنَ احْتِرَازِهِ مِنْ تَنَاوُلِ السُّمِّ الْقَاتِلِ، وَيَكُونُ خَوْفُهُ لَوْ ارْتَكَبَ شَيْئًا مِنْهَا أَعْظَمَ مِنْ خَوْفِهِ لَوْ أَكَلَ السُّمَّ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَعَاصِيَ تَعْمَلُ فِيْ الْقُلُوبِ عَمَلَ السُّمِّ فِيْ الأَجْسَامِ، وَالْقَلْبُ أَعَزُّ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِ مِنْ جِسْمِهِ؛ بَلْ رَأْسُ مَالِ الْمُرِيدِ حِفْظُ قَلْبِهِ وَعِمَارَتُهُ. وَالْجِسْمُ غَرَضٌ لِلْآفَاتِ وَعَمَّا قَرِيْبٍ يُتْلَفُ بِالْمَوْتِ، وَلَيْسَ فِيْ ذَهَابِهِ إِلّا مُفَارَقَةُ الدُّنْيَا النَّكِدَةِ النَّغِصَةِ، وَأَمَّا القَلْبُ إِنْ تَلِفَ فَقَدْ تَلِفَتِ الآخِرَةُ فَإِنَّهُ لَا يَنْجُوْ مِنْ سَخَطِ اللهِ وَيَفُوزُ بِرِضْوَانِهِ وَثَوَابِهِ إِلّا مَنْ أَتَىٰ اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيْمٍ.

فَصــــل في حفظ القلب
من الوساوس والآفات والخواطر السيئة

وَعَلَىٰ المُرِيْدِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِيْ حِفْظِ قَلْبِهِ مِنْ الوَسَاوِسِ والآفَاتِ وَالخَوَاطِرِ الرَّدِيَّةِ، وَلْيُقِمْ عَلَىٰ بَابِ قَلْبِهِ حَاجِبًا مِنَ المُرَاقَبَةِ يَمْنَعُهَا مِنَ الدُّخُوْلِ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهَا إِنْ دَخَلَتْهُ أَفْسَدَتْهُ، وَيَعْسُرُ بَعْدَ ذَلِكَ إِخْرَاجُهَا مِنْهُ.

وَلْيُبَالِغْ فِيْ تَنْقِيَةِ قَلْبِهِ الَّذِيْ هُوَ مَوْضِعُ نَظَرِ رَبِّهِ مِنَ المَيْلِ إِلَىٰ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا، وَمِنَ الحِقْدِ وَالغِلِّ وَالغِشِّ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ، وَمِنَ الظَّنِّ السَّوْءَ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ، وَلْيَكُنْ نَاصِحًا لَهُمْ رَحِيْمًا بِهِمْ مُشْفِقًا عَلَيْهِمْ، مُعْتَقِدًا الخَيْرَ فِيْهِمْ، يُحِبُّ لَهُمْ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَكْرَهُ لَهُمْ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الشَّرِّ.

وَلْتَعْلَمْ أَيُّهَا المُرِيْدُ أَنَّ لِلْقَلْبِ مَعَاصِيَ هِيَ أَفْحَشُ وَأَقْبَحُ وَأَخْبَثُ مِنْ مَعَاصِيْ الْجَوَارِحِ وَلَا يَصْلُحُ القَلْبُ لِنُزُوْلِ مَعْرِفَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ تَعَالَىٰ إِلَّا بَعْدَ التَّخَلِّيْ عَنْهَا وَالتَّخَلُّصِ مِنْهَا.

فَمِنْ أَفْحَشِهَا: الكِبْرُ وَالرِّيَاءُ وَالحَسَدُ. فَالكِبْرُ يَدُلُّ مِنْ صَاحِبِهِ

عَلَىٰ غَايَةِ الحَمَاقَةِ، وَنِهَايَةِ الجَهَالَةِ وَالغَبَاوَةِ، وَكَيْفَ يَلِيْقُ التَّكَبُّرُ مِمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَخْلُوْقٌ مِنْ نُطْفَةٍ مَذِرَةٍ وَعَلَىٰ القُرْبِ يَصِيْرُ جِيْفَةً قَذِرَةً وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ الفَضَائِلِ وَالمَحَاسِنِ فَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَصُنْعِهِ، لَيْسَ لَهُ فِيْهِ قُدْرَةٌ وَلَا فِيْ تَحْصِيْلِهِ حَوْلٌ وَلَا قُوَّةٌ، أَوْ لَا يَخْشَىٰ إِذَا تَكَبَّرَ عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ بِمَا آتَاهُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ أَنْ يَسْلُبَهُ مَا أَعْطَاهُ بِسُوْءِ أَدَبِهِ وَمُنَازَعَتِهِ لِرَبِّهِ فِيْ وَصْفِهِ؟ لِأَنَّ الكِبْرَ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الجَبَّارِ المُتَكَبِّرِ.

وَأَمَّا الرِّيَاءُ فَيَدُلُّ عَلَىٰ خُلُوِّ قَلْبِ المُرَائِي مِنْ عَظَمَةِ اللهِ وَإِجْلَالِهِ لِأَنَّهُ يَتَصَنَّعُ وَيَتَزَيَّنُ لِلْمَخْلُوْقِيْنَ وَلَا يَقْنَعُ بِعِلْمِ اللهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ. وَمَنْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ وَأَحَبَّ أَنْ يَعْرِفَهُ النَّاسُ بِذَلِكَ لِيُعَظِّمُوْهُ وَيَصْطَنِعُوْا إِلَيْهِ المَعْرُوْفَ فَهُوَ مُرَاءٍ جَاهِلٌ رَاغِبٌ فِيْ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ الزَّاهِدَ مَنْ لَوْ أَقْبَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ بِالتَّعْظِيْمِ وَبَذْلِ الأَمْوَالِ لَكَانَ يُعْرِضُ عِنْ ذَلِكَ وَيَكْرَهُهُ، وَهَذَا يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، فَمَنْ أَجْهَلُ مِنْهُ؟ وَإِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ الزُّهْدِ فِيْ الدُّنْيَا

فَيَنْبَغِيْ لَهُ أَنْ يَطْلُبَ الدُّنْيَا مِنَ المَالِكِ لَهَا وَهُوَ اللهُ فَإِنَّ قُلُوْبَ الْخَلَائِقِ بِيَدِهِ يُقْبِلُ بِهَا عَلَىٰ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ وَيُسَخِّرُهَا لَهُ فِيْمَا يَشَاءُ.

وَأَمَّا الحَسَدُ فَهُوَ مُعَادَاةٌ للهِ ظَاهِرَةٌ، وَمُنَازَعَةٌ لَهُ فِيْ مُلْكِهِ بَيِّنَةٌ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ إِذَا أَنْعَمَ عَلَىٰ بَعْضِ عِبَادِهِ بِنِعْمَةٍ فَلَا شَكَّ أَنَّهُ مُرِيْدٌ لِذَلِكَ وَمُخْتَارٌ لَهُ؛ إِذْ لَا مُكْرِهَ لَهُ تَعَالَىٰ، فَإِذَا أَرَادَ العَبْدُ خِلَافَ مَا أَرَادَ مَوْلَاهُ فَقَدْ أَسَاءَ الأَدَبَ، وَاسْتَوْجَبَ العَطَبَ.

ثُمَّ إِنَّ الحَسَدَ قَدْ يَكُوْنُ عَلَىٰ أُمُوْرِ الدُّنْيَا كَالجَاهِ وَالمَالِ، وَهِيَ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ يُحْسَدَ عَلَيْهَا؛ بَلْ يَنبَغِيْ لَكَ أَنْ تَرْحَمَ مَنِ ابْتُلِيَ بِهَا وَتَحْمَدَ اللهَ الَّذِيْ عَافَاكَ مِنْهَا، وَقَدْ يَكُوْنُ عَلَىٰ أُمُوْرِ الآخِرَةِ كَالعِلْمِ وَالصَّلَاحِ.

وَقَبِيْحٌ بِالمُرِيْدِ أَنْ يَحْسِدَ مَنْ وَافَقَهُ عَلَىٰ طَرِيْقِهِ، وَعَاوَنَهُ عَلَىٰ أَمْرِهِ؛ بَلْ يَنْبَغِيْ لَهُ أَنْ يَفْرَحَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ صَارَ عَوْنًا لَهُ وَجِنْسًا يَتَقَوَّىٰ بِهِ، وَالمُؤْمِنُ كَثِيْرٌ بِأَخِيْهِ؛ بَلِ الَّذِيْ يَنْبَغِيْ لِلْمُرِيْدِ أَنْ يُحِبَّ

بِبَاطِنِهِ وَيَجْتَهِدَ بِظَاهِرِهِ فِيْ جَمْعِ النَّاسِ عَلَىٰ طَرِيْقِ اللهِ وَالِاشْتِغَالِ بِطَاعَتِهِ وَلَا يُبَالِيْ أَفَضَّلُوْهُ أَمْ فَضَّلَهُمْ فَإِنَّ ذَلِكَ رِزْقٌ مِنَ اللهِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ.

وَفِيْ القَلْبِ أَخْلَاقٌ كَثِيْرَةٌ مَذْمُوْمَةٌ، لَمْ نَذْكُرْهَا؛ حِرْصًا عَلَىٰ الإِيْجَازِ، وَقَدْ نَبَّهْنَا عَلَىٰ أُمَّهَاتِهَا، وَأُمُّ الجَمِيْعِ وَأَصْلُهَا وَمَغْرِسُهَا حُبُّ الدُّنْيَا، فَحُبُّهَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيْئَةٍ كَمَا وَرَدَ، وَإِذَا سَلِمَ القَلْبُ مِنْهُ فَقَدْ صَلَحَ وَصَفَا، وَتَنَوَّرَ وَطَابَ، وَتَأَهَّلَ لِوَارِدَاتِ الأَنْوَارِ وَصَلُحَ لِلْمُكَاشَفَةِ بِالأَسْرَارِ.

فصـــل في كفِّ الجوارح عن المعاصي وفتنة الدنيا

وَعَلَىٰ المُرِيْدِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِيْ كَفِّ جَوَارِحِهِ عَنِ المَعَاصِيْ وَالآثَامِ، وَلَا يُحَرِّكُ شَيْئًا مِنْهَا إِلَّا فِيْ طَاعَةٍ، وَلَا يَعْمَلُ بِهَا إِلَّا شَيْئًا يَعُوْدُ عَلَيْهِ نَفْعُهُ فِيْ الآخِرَةِ.

وَلْيُبَالِغْ فِيْ حِفْظِ اللِّسَانِ؛ فَإِنَّ جِرْمَهُ صَغِيْرٌ وَجُرْمَهُ كَبِيْرٌ، فَلْيَكُفَّهُ عَنِ الكَذِبِ وَالغِيْبَةِ وَسَائِرِ الكَلَامِ المَحْظُوْرِ، وَلْيَحْتَرِزْ مِنَ الكَلَامِ الفَاحِشِ، وَمِنَ الخَوْضِ فِيْمَا لَا يَعْنِيْهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُحَرَّمًا فَإِنَّهُ يُقَسِّيْ القَلْبَ وَيَكُوْنُ فِيْهِ ضَيَاعُ الوَقْتِ؛ بَلْ يَنْبَغِيْ لِلْمُرِيْدِ أَنْ لَا يُحَرِّكَ لِسَانَهُ إِلَّا بِتِلَاوَةٍ أَوْ ذِكْرٍ أَوْ نُصْحٍ لِمُسْلِمٍ أَوْ أَمْرٍ بِمَعْرُوْفٍ أَوْ نَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ أَوْ شَيْءٍ مِنْ حَاجَاتِ دُنْيَاهُ الَّتِيْ يَسْتَعِيْنُ بِهَا عَلَىٰ أُخْرَاهُ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ إِلَّا ذِكْرُ اللهِ أَوْ أَمْرٌ بِمَعْرُوْفٍ أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ**».[1]

(1) سنن الترمذي: ج4/ ص608 ح2412.

وَاعْلَمْ أَنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ بَابَانِ مَفْتُوْحَانِ إِلَىٰ القَلْبِ يَصِيْرُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا يَدْخُلُ مِنْهُمَا، وَكَمْ مِنْ شَيْءٍ يَسْمَعُهُ الإِنْسَانُ أَوْ يَرَاهُ مِمَّا لَا يَنْبَغِيْ يَصِلُ مِنْهُ أَثَرٌ إِلَىٰ القَلْبِ تَعْسُرُ إِزَالَتُهُ عَنْهُ فَإِنَّ القَلْبَ سَرِيْعُ التَّأَثُّرِ بِكُلِّ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ، وَإِذَا تَأَثَّرَ بِشَيْءٍ يَعْسُرُ مَحْوُهُ عَنْهُ، فَلْيَكُنِ المُرِيْدُ حَرِيْصًا عَلَىٰ حِفْظِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ مُجْتَهِدًا فِيْ كَفِّ جَمِيْعِ جَوَارِحِهِ عَنِ الآثَامِ وَالفُضُوْلِ، وَلْيَحْذَرْ مِنَ النَّظَرِ بِعَيْنِ الاِسْتِحْسَانِ إِلَىٰ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِيْنَتِهَا فَإِنَّ ظَاهِرَهَا فِتْنَةٌ، وَبَاطِنَهَا عِبْرَةٌ.

وَالعَيْنُ تَنْظُرُ إِلَىٰ ظَاهِرِ فِتْنَتِهَا، وَالقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَىٰ بَاطِنِ عِبْرَتِهَا، وَكَمْ مِنْ مُرِيْدٍ نَظَرَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ زَخَارِفِ الدُّنْيَا فَمَالَ بِقَلْبِهِ إِلَىٰ مَحَبَّتِهَا وَالسَّعْيْ فِيْ جَمْعِهَا وَعِمَارَتِهَا، فَيَنْبَغِيْ لَكَ أَيُّهَا المُرِيْدُ أَنْ تَغُضَّ بَصَرَكَ عَنْ جَمِيْعِ الكَائِنَاتِ وَلَا تَنْظُرْ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا عَلَىٰ قَصْدِ الاِعْتِبَارِ، وَمَعْنَاهُ أَنْ تَذْكُرَ عِنْدَ النَّظَرِ إِلَيْهَا أَنَّهَا تَفْنَىٰ وَتَذْهَبُ وَأَنَّهَا قَدْ كَانَتْ مِنْ قَبْلُ مَعْدُوْمَةٌ، وَأَنَّهُ كَمْ

نَظَرَ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ الآدَمِيِّيْنَ فَذَهَبَ وَبَقِيَتْ هِيَ، وَكَمْ تَوَارَثَهَا خَلَفٌ عَنْ سَلَفٍ.

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى المَوْجُوْدَاتِ، فَانْظُرْ إِلَيْهَا نَظَرَ المُسْتَدِلِّ بِهَا عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ مُوْجِدِهَا وَبَارِئِهَا سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ جَمِيْعَ المَوْجُوْدَاتِ تُنَادِيْ بِلِسَانِ حَالِهَا نِدَاءً يَسْمَعُهُ أَهْلُ القُلُوْبِ المُنَوَّرَةِ، النَّاظِرُوْنَ بِنُوْرِ الله -أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله العَزِيْزُ الحَكِيْمُ.

فصـــل في المداومة على الطهارة وإيثار الجوع على الشبع

وَيَنْبَغِيْ لِلْمُرِيْدِ أَنْ لَا يَزَالَ عَلَىٰ طَهَارَةٍ، وَكُلَّمَا أَحْدَثَ تَوَضَّأَ وَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، وَإِنْ كَانَ مُتَأَهِّلًا وَأَتَىٰ أَهْلَهُ فَلْيُبَادِرْ بِالِاغْتِسَالِ مِنَ الجَنَابَةِ فِيْ الوَقْتِ، وَلَا يَمْكُثُ جُنُبًا، وَيَسْتَعِيْنُ عَلَىٰ دَوَامِ الطَّهَارَةِ بِقِلَّةِ الأَكْلِ، فَإِنَّ الَّذِيْ يُكْثِرُ الأَكْلَ يَقَعُ لَهُ الحَدَثُ كَثِيْرًا فَتَشُقَّ عَلَيْهِ المُدَاوَمَةُ عَلَىٰ الطَّهَارَةِ، وَفِيْ قِلَّةِ الأَكْلِ أَيْضًا مَعُوْنَةٌ عَلَىٰ السَّهَرِ وَهُوَ مِنْ آكَدِ وَظَائِفِ الإِرَادَةِ.

وَالَّذِيْ يَنْبَغِيْ لِلْمُرِيْدِ أَنْ لَا يَأْكُلَ إِلَّا عَنْ فَاقَةٍ، وَلَا يَنَامُ إِلَّا عَنْ غَلَبَةٍ، وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيْ حَاجَةٍ، وَلَا يُخَالِطُ أَحَدًا مِنَ الخَلْقِ إِلَّا إِنْ كَانَتْ لَهُ فِيْ مُخَالَطَتِهِ فَائِدَةٌ، وَمَنْ أَكْثَرَ الأَكْلَ قَسَا قَلْبُهُ وَثَقُلَتْ جَوَارِحُهُ عَنِ العِبَادَةِ، وَكَثْرَةُ الأَكْلِ تَدْعُو إِلَىٰ كَثْرَةِ النَّوْمِ وَالكَلَامِ، وَالمُرِيْدُ إِذَا كَثُرَ نَوْمُهُ وَكَلامُهُ صَارَتْ إِرَادَتُهُ صُوْرَةً لَا حَقِيْقَةَ لَهَا، وَفِيْ الحَدِيْثِ:

«مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ

يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ؛ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ».[1]

(1) المستدرك على الصحيحين: ج4/ ص367 ح7945.

فَصــــل في الإقبال على الله والتفرُّغ لعبادته

وَيَنْبَغِيْ لِلْمُرِيْدِ أَنْ يَكُوْنَ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنِ المَعَاصِيْ وَالمَحْظُوْرَاتِ، وَأَحْفَظَهُمْ لِلْفَرَائِضِ وَالمَأْمُوْرَاتِ، وَأَحْرَصَهُمْ عَلَىٰ القُرُبَاتِ، وَأَسْرَعَهُمْ إِلَىٰ الخَيْرَاتِ، فَإِنَّ المُرِيْدَ لَمْ يَتَمَيَّزْ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ إِلَّا بِالإِقْبَالِ عَلَىٰ الله وَعَلَىٰ طَاعَتِهِ، وَالتَّفَرُّغِ عَنْ كُلِّ مَا يُشْغِلُهُ عَنْ عِبَادَتِهِ.

وَلْيَكُنْ شَحِيْحًا عَلَىٰ أَنْفَاسِهِ، بَخِيْلًا بِأَوْقَاتِهِ، لَا يَصْرِفُ مِنْهَا قَلِيْلًا وَلَا كَثِيْرًا، إِلَّا فِيْمَا يُقَرِّبُهُ مِنْ رَبِّهِ، وَيَعُوْدُ عَلَيْهِ بِالنَّفْعِ فِيْ مَعَادِهِ.

وَيَنْبَغِيْ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ وِرْدٌ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ العِبَادَاتِ يُوَاظِبُ عَلَيْهَا، وَلَا يَسْمَحُ بِتَرْكِ شَيْءٍ مِنْهَا فِيْ عُسْرٍ وَلَا يُسْرٍ، فَلْيُكْثِرْ مِنْ تِلَاوَةِ القُرْآنِ العَظِيْمِ مَعَ التَّدَبُّرِ لِمَعَانِيْهِ، وَالتَّرْتِيْلِ لِأَلْفَاظِهِ، وَلْيَكُنْ مُمْتَلِئًا بِعَظَمَةِ المُتَكَلِّمِ عِنْدَ تِلَاوَةِ كَلَامِهِ، وَلَا يَقْرَأُ كَمَا يَقْرَأُ الغَافِلُوْنَ الَّذِيْنَ يَقْرَءُوْنَ القُرْآنَ بِأَلْسِنَةٍ فَصِيْحَةٍ وَأَصْوَاتٍ

عَالِيَةٍ وَقُلُوْبٍ مِنَ الخُشُوْعِ وَالتَّعْظِيْمِ للهِ خَالِيَةٍ، يَقْرَءُوْنَهُ كَمَا أُنْزِلَ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِ وَلَا يَدْرُوْنَ مَعْنَاهُ، وَلَا يَعْلَمُوْنَ لِأَيِّ شَيْءٍ أُنْزِلَ، وَلَوْ عَلِمُوْا لَعَمِلُوْا، فَإِنَّ العِلْمَ مَا نَفَعَ، وَمَنْ عَلِمَ وَمَا عَمِلَ فَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَاهِلِ فَرْقٌ إِلَّا مِنْ حَيْثُ إِنَّ حُجَّةَ الله عَلَيْهِ آكَدُ، فَعَلَىٰ هَذَا يَكُوْنُ الجَاهِلُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُ. وَلِذَلِكَ قِيْلَ: كُلُّ عِلْمٍ لَا يَعُوْدُ عَلَيْكَ نَفْعُهُ فَالجَهْلُ أَعْوَدُ عَلَيْكَ مِنْهُ.

وَلْيَكُنْ لَكَ -أَيُّهَا المُرِيْدُ- حَظٌّ مِنَ التَّهَجُّدِ فَإِنَّ اللَّيْلَ وَقْتُ خَلْوَةِ العَبْدِ مَعَ مَوْلَاهُ فَأَكْثِرْ فِيْهِ مِنَ التَّضَرُّعِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَنَاجِ رَبَّكَ بِلِسَانِ الذِّلَّةِ وَالِاضْطِرَارِ، عَنْ قَلْبٍ مُتَحَقِّقٍ بِنِهَايَةِ العَجْزِ وَغَايَةِ الِانْكِسَارِ، وَاحْذَرْ أَنْ تَدَعَ قِيَامَ اللَّيْلِ فَلَا يَأْتِيَ عَلَيْكَ وَقْتُ السَّحَرِ إِلَّا وَأَنْتَ مُسْتَيْقِظٌ ذَاكِرٌ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فَصْلٌ في وجوب إقامة الصلاة
وأنّ روح العبادات الحضور فيها مع الله

وَكُنْ -أَيُّهَا المُرِيْدُ- فِيْ غَايَةِ الِاعْتِنَاءِ بِإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ بِإِتْمَامِ قِيَامِهِنَّ وَقِرَاءَتِهِنَّ وَخُشُوْعِهِنَّ وَرُكُوْعِهِنَّ وَسُجُوْدِهِنَّ وَسَائِرِ أَرْكَانِهِنَّ وَسُنَنِهِنَّ وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ قَبْلَ الدُّخُوْلِ فِيْ الصَّلَاةِ عَظَمَةَ مَنْ تُرِيْدُ الوُقُوْفَ بَيْنَ يَدَيْهِ جَلَّ وَعَلَا، وَاحْذَرْ أَنْ تُنَاجِيَ مَلِكَ المُلُوْكِ وَجَبَّارَ الجَبَابِرَةِ بِقَلْبٍ لَاهٍ مُسْتَرْسِلٍ فِيْ أَوْدِيَةِ الغَفْلَةِ وَالوَسَاوِسِ جَائِلٍ فِيْ مَيَادِيْنِ الخَوَاطِرِ وَالأَفْكَارِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَتَسْتَوْجِبَ المَقْتَ مِنَ الله، وَالطَّرْدَ عَنْ بَابِ الله.

وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«إِذَا قَامَ العَبْدُ إِلَى الصَّلَاةِ أَقْبَلَ الله عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ فَإِذَا الْتَفَتَ إِلَى وَرَائِهِ يَقُوْلُ الله تَعَالَى: «ابْنُ آدَمَ الْتَفَتَ إِلَى مَنْ هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنِّيْ، فَإِنِ الْتَفَتَ الثَّانِيَةَ، قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَإِنِ الْتَفَتَ الثَّالِثَةَ أَعْرَضَ الله**

عَنْهُ».[1]

فَإِذَا كَانَ المُلْتَفِتُ بِوَجْهِهِ الظَّاهِرِ يُعْرِضُ الله عَنْهُ فَكَيْفَ يَكُوْنُ حَالُ مَنْ يَلْتَفِتْ بِقَلْبِهِ فِيْ صَلَاتِهِ إِلَى حُظُوْظِ الدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى الأَجْسَامِ وَالظَّوَاهِرِ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى القُلُوْبِ وَالسَّرَائِرِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ رُوْحَ جَمِيْعِ العِبَادَاتِ وَمَعْنَاهَا إِنَّمَا هُوَ الحُضُوْرُ مَعَ اللهِ فِيْهَا، فَمَنْ خَلَتْ عِبَادَتُهُ عَنِ الحُضُوْرِ، فَعِبَادَتُهُ هَبَاءٌ مَنْثُوْرٌ.

وَمَثَلُ الَّذِيْ لَا يَحْضُرُ مَعَ اللهِ فِيْ عِبَادَتِهِ مَثَلُ الَّذِيْ يُهْدِيْ إِلَى مَلِكٍ عَظِيْمٍ وَصِيْفَةً مَيِّتَةً أَوْ صُنْدُوْقًا فَارِغًا، فَمَا أَجْدَرُهُ بِالعُقُوْبَةِ وَحِرْمَانِ المَثُوْبَةِ.

(1) الهيثمي: مجمع الزوائد 2/232.

فَصْلٌ في التحذير من ترك الجمعة والجماعات والحث على أداء الرواتب المشروعات

وَاحْذَرْ أَيُّهَا المُرِيْدُ كُلَّ الحَذَرِ مِنْ تَرْكِ الجُمُعَةِ وَالجَمَاعَاتِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَادَاتِ أَهْلِ البَطَالَاتِ وَسِمَاتِ أَرْبَابِ الجَهَالَاتِ. وَحَافِظْ عَلَىٰ الرَّوَاتِبِ المَشْرُوْعَاتِ قَبْلَ الصَّلَاةِ وَبَعْدَهَا، وَوَاظِبْ عَلَىٰ صَلَاةِ الوَتْرِ وَالضُّحَىٰ وَإِحْيَاءِ مَا بَيْنَ العِشَاءَيْنِ، وَكُنْ شَدِيْدَ الحِرْصِ عَلَىٰ عِمَارَةِ مَا بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ إِلَىٰ الطُّلُوْعِ، وَمَا بَعْدَ صَلَاةِ العَصْرِ إِلَىٰ الغُرُوْبِ فَهَذَانِ وَقْتَانِ شَرِيْفَانِ تَفِيْضُ فِيْهِمَا مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ الأَمْدَادُ، عَلَىٰ المُتَوَجِّهِيْنَ إِلَيْهِ مِنَ العِبَادِ.

وَفِيْ عِمَارَةِ مَا بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ خَاصِيَّةٌ قَوِيَّةٌ فِيْ جَلْبِ الأَرْزَاقِ الجُسْمَانِيَّةِ، وَفِيْ عِمَارَةِ مَا بَعْدَ العَصْرِ خَاصِيَّةٌ قَوِيَّةٌ لِجَلْبِ الأَرْزَاقِ القَلْبِيَّةِ، كَذَلِكَ جَرَّبَهُ أَرْبَابُ البَصَائِرِ مِنَ العَارِفِيْنَ الأَكَابِرِ. وَفِيْ الحَدِيْثِ: «**إِنَّ الَّذِيْ يَقْعُدُ فِيْ مُصَلَّاهُ يَذْكُرُ اللهَ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ أَسْرَعُ فِيْ تَحْصِيْلِ الرِّزْقِ مِنَ الَّذِيْ يَضْرِبُ فِيْ الآفَاقِ**». يَعْنِي يُسَافِرُ فِيْهَا لِطَلَبِ الأَرْزَاقِ.

فَصْلٌ في الحث على ملازمة الذِّكْر والتفكُّر

وَالَّذِيْ عَلَيْهِ المُعَوَّلُ فِيْ طَرِيْقِ اللهِ تَعَالَىٰ بَعْدَ فِعْلِ الأَوَامِرِ وَاجْتِنَابِ المَحَارِمِ؛ مُلَازَمَةُ الذِّكْرِ للهِ فَعَلَيْكَ بِهِ أَيُّهَا المُرِيْدُ فِيْ كُلِّ حَالٍ وَفِيْ كُلِّ وَقْتٍ وَفِيْ كُلِّ مَكَانٍ بِالقَلْبِ وَاللِّسَانِ.

وَالذِّكْرُ الَّذِيْ يَجْمَعُ جَمِيْعَ مَعَانِيْ الأَذْكَارِ وَثَمَرَاتِهَا البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ هُوَ قَوْلُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا الله» وَهُوَ الذِّكْرُ الَّذِيْ يُؤْمَرُ بِمُلَازَمَتِهِ أَهْلُ البِدَايَةِ وَيَرْجِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النِّهَايَةِ.

وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَذُوْقَ شَيْئًا مِنْ أَسْرَارِ الطَّرِيْقَةِ وَيُكَاشِفَ بِشَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ الحَقِيْقَةِ فَلْيَعْكُفْ عَلَىٰ الذِّكْرِ للهِ تَعَالَىٰ بِقَلْبٍ حَاضِرٍ، وَأَدَبٍ وَافِرٍ، وَإِقْبَالٍ صَادِقٍ، وَتَوْجِيْهٍ خَارِقٍ.

فَمَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ المَعَانِيْ لِشَخْصٍ إِلَّا كُوْشِفَ بِالْمَلَكُوْتِ الأَعْلَىٰ وَطَالَعَتْ رُوْحُهُ حَقَائِقَ العَالَمِ الأَصْفَىٰ وَشَاهَدَتْ عَيْنُ سِرِّهِ الجَمَالَ الأَقْدَسَ الأَسْمَىٰ.

وَلْتَكُنْ أَيُّهَا المُرِيْدُ مُكْثِرًا مِنَ التَّفَكُّرِ، وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ

أَقْسَامٍ:

تَفَكُّرٌ فِيْ عَجَائِبِ القُدْرَةِ وَبَدَائِعِ المَمْلَكَةِ السَّمَاوِيَّةِ وَالأَرْضِيَّةِ، وَثَمَرَتُهُ المَعْرِفَةُ بِاللهِ. وَتَفَكُّرٌ فِيْ الآلَاءِ وَالنِّعَمِ، وَنَتِيْجَتُهُ المَحَبَّةُ لِلّٰهِ. وَتَفَكُّرٌ فِيْ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَحْوَالِ الخَلْقِ فِيْهِمَا، وَفَائِدَتُهُ الإِعْرَاضُ عَنِ الدُّنْيَا وَالإِقْبَالُ عَلَىٰ الأُخْرَىٰ، وَقَدْ شَرَحْنَا شَيْئًا مِنْ مَجَارِيَ الفِكْرِ وَثَمَرَتِهِ فِيْ رِسَالَةِ المُعَاوَنَةِ فَلْيَطْلُبْهُ مَنْ أَرَادَهُ.

فَصْلٌ فيما به زجر النفس عن التكاسل عن الطاعات وعن الميل إلى المخالفات

وَإِذَا آنَسْتَ مِنْ نَفْسِكَ أَيُّهَا المُرِيْدُ تَكَاسُلًا عَنِ الطَّاعَاتِ وَتَثَاقُلًا عَنِ الخَيْرَاتِ فَقُدْهَا إِلَيْهَا بِزِمَامِ الرَّجَاءِ، وَهُوَ أَنْ تَذْكُرَ لَهَا مَا وَعَدَ الله بِهِ العَامِلِيْنَ بِطَاعَتِهِ مِنَ الفَوْزِ العَظِيْمِ وَالنَّعِيْمِ المُقِيْمِ وَالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ، وَالخُلُوْدِ فِيْ فَسِيْحِ الجِنَانِ، وَالعِزِّ وَالرِّفْعَةِ وَالشَّرَفِ وَالمَكَانَةِ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ وَعِنْدَ عِبَادَهُ.

وَإِذَا أَحْسَسْتَ مِنْ نَفْسِكَ مَيْلًا إِلَى المُخَالَفَاتِ أَوْ الْتِفَاتًا إِلَى السَّيِّئَاتِ فَرُدَّهَا عَنْهَا بِسَوْطِ «الخَوْفِ» وَهُوَ أَنْ تُذْكِّرَهَا وَتَعِظَهَا بِمَا تَوَعَّدَ الله بِهِ مَنْ عَصَاهُ مِنَ الهَوَانِ وَالوَبَالِ، وَالخِزْيِ وَالنَّكَالِ، وَالطَّرْدِ وَالحِرْمَانِ وَالصِّغَارِ وَالخُسْرَانِ.

وَإِيَّاكَ وَالوُقُوْعَ فِيْمَا وَقَعَ فِيْهِ بَعْضُ الشَّاطِحِيْنَ مِنَ الِاسْتِهَانَةِ بِشَأْنِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَعَظِّمْ مَا عَظَّمَ الله وَرَسُوْلُهُ.

وَاعْمَلْ للهِ؛ لِأَنَّهُ رَبُّكَ وَأَنْتَ عَبْدُهُ وَاسْأَلْهُ أَنْ يُدْخِلَكَ جَنَّتَهُ وَأَنْ يُعِيْذَكَ مِنْ نَارِهِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ.

وَإِنْ قَالَ لَكَ الشَّيْطَانُ -لَعَنَهُ اللهُ- إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غَنِيٌّ عَنْكَ وَعَنْ عَمَلِكَ وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ فَقُلْ لَهُ: صَدَقْتَ، وَلَكِنْ أَنَا فَقِيْرٌ إِلَىٰ فَضْلِ اللهِ وَإِلَىٰ العَمَلِ الصَّالِحِ، وَالطَّاعَةُ تَنْفَعُنِيْ وَالمَعْصِيَةُ تَضُرُّنِيْ، بِذَلِكَ أَخْبَرَنِيْ رَبِّيْ فِيْ كِتَابِهِ العَزِيْزِ وَعَلَىٰ لِسَانِ رَسُوْلِهِ ﷺ.

فَإِنْ قَالَ لَكَ: إِنْ كُنْتَ سَعِيْدًا عِنْدَ اللهِ فَإِنَّكَ لَا مَحَالَةَ تَصِيْرُ إِلَىٰ الجَنَّةِ سَوَاءً كُنْتَ طَائِعًا أَوْ عَاصِيًا، وَإِنْ كُنْتَ شَقِيًّا عِنْدَهُ فَسَوْفَ تَصِيْرُ إِلَىٰ النَّارِ وَإِنْ كُنْتَ مُطِيْعًا. فَلَا تَلْتَفِتْ إِلَىٰ قَوْلِهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ أَمْرَ السَّابِقَةِ غَيْبٌ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الخَلْقِ فِيْهِ شَيْءٌ، وَالطَّاعَةُ أَدَلُّ دَلِيْلٍ عَلَىٰ سَابِقَةِ السَّعَادَةِ، وَمَا بَيْنَ المُطِيْعِ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوْتَ عَلَىٰ طَاعَتِهِ، وَالمَعْصِيَةُ أَدَلُّ دَلِيْلٍ عَلَىٰ سَابِقَةِ الشَّقَاءِ، وَمَا بَيْنَ العَاصِيْ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا أَنْ يَمُوْتَ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ.

فَصْلٌ في أحوال النفس ولزوم الصبر

وَاعْلَمْ -أَيُّهَا المُرِيْدُ- أَنَّ أَوَّلَ الطَّرِيْقِ صَبْرٌ وَآخِرَهَا شُكْرٌ، وَأَوَّلَهَا عَنَاءٌ وَآخِرَهَا هَنَاءٌ، وَأَوَّلَهَا تَعَبٌ وَنَصَبٌ وَآخِرَهَا فَتْحٌ وَكَشْفٌ وَوُصُوْلٌ إِلَىٰ نِهَايَةِ الأَرَبِ، وَذَلِكَ مَعْرِفَةُ اللهِ وَالوُصُوْلُ إِلَيْهِ وَالأُنْسُ بِهِ وَالوُقُوْفُ فِيْ كَرِيْمِ حَضْرَتِهِ مَعَ مَلَائِكَتِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمَنْ أَسَّسَ جَمِيْعَ أُمُوْرِهِ عَلَىٰ الصَّبْرِ الجَمِيْلِ حَصَلَ عَلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ وَوَصَلَ إِلَىٰ كُلِّ مَأْمُوْلٍ وَظَفِرَ بِكُلِّ مَطْلُوْبٍ.

وَاعْلَمْ أَنَّ النَّفْسَ تَكُوْنُ فِيْ أَوَّلِ الأَمْرِ أَمَّارَةً تَأْمُرُ بِالشَّرِّ وَتَنْهَىٰ عَنِ الخَيْرِ، فَإِنْ جَاهَدَهَا الإِنْسَانُ، وَصَبَرَ عَلَىٰ مُخَالَفَةِ هَوَاهَا صَارَتْ لَوَّامَةً مُتَلَوِّنَةً لَهَا وَجْهٌ إِلَىٰ المُطْمَئِنَّةِ وَوَجْهٌ إِلَىٰ الأَمَّارَةِ فَهِيَ مَرَّةً هكَذَا وَمَرَّةً هكَذَا، فَإِنْ رَفَقَ بِهَا وَسَارَ بِهَا يَقُوْدُهَا بِأَزِمَّةِ الرَّغْبَةِ فِيمَا عِنْدَ اللهِ صَارَتْ مُطْمَئِنَّةً تَأْمُرُ بِالخَيْرِ وَتَسْتَلِذُّهُ وَتَأْنَسُ بِهِ، وَتَنْهَىٰ عَنِ الشَّرِّ وَتَنْفِرُ عَنْهُ وَتَفِرُّ مِنْهُ.

وَصَاحِبُ النَّفْسِ المُطْمَئِنَّةِ يَعْظُمُ تَعَجُّبُهُ مِنَ النَّاسِ فِيْ

إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الطَّاعَاتِ مَعَ مَا فِيْهَا مِنَ الرَّوْحِ وَالأُنْسِ وَاللَّذَّةِ، وَفِيْ إِقْبَالِهِمْ عَلَىٰ المَعَاصِيْ وَالشَّهَوَاتِ مَعَ مَا فِيْهَا مِنَ الغَمِّ وَالوَحْشَةِ وَالمَرَارَةِ، وَيَحْسَبُ أَنَّهُمْ يَجِدُوْنَ وَيَذُوْقُوْنَ فِيْ الأَمْرَيْنِ مِثْلَ مَا يَجِدُ وَيَذُوْقُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ نَفْسِهِ وَيَذْكُرُ مَا كَانَ يَجِدُ مِنْ قَبْلُ فِيْ تَنَاوُلِ الشَّهَوَاتِ مِنَ اللَّذَّاتِ وَفِيْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ مِنَ المَرَارَاتِ فَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَىٰ مَا هُوَ فِيْهِ إِلَّا بِمُجَاهَدَةٍ طَوِيْلَةٍ وَعِنَايَةٍ مِنَ الله عَظِيْمَةٍ.

فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الصَّبْرَ عَنِ المَعَاصِيْ وَالشَّهَوَاتِ وَعَلَىٰ مُلَازَمَةِ الطَّاعَاتِ هُوَ المُوَصِّلُ إِلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ وَالمُبَلِّغُ إِلَىٰ كُلِّ مَقَامٍ شَرِيْفٍ وَحَالٍ مُنِيْفٍ، وَكَيْفَ لَا وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:200].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا

صَبَرُواْۖ ﴾ [الأعراف:137]. وَقَالَ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة:24]

وَفِيْ الحَدِيْثِ: «**مِنْ أَقَلِّ مَا أُوْتِيْتُمْ: اليَقِيْنُ وَعَزِيْمَةُ الصَّبْرِ وَمَنْ أُوْتِيَ حَظَّهُ مِنْهُمَا فَلَا يُبَالِيْ بِمَا فَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ**».

فَصْلٌ في الاعتبار بالصابرين وأنّ الرِّزق مقسومٌ

وَقَدْ يُبْتَلَىٰ المُرِيْدُ بِالفَقْرِ وَالفَاقَةِ وَضِيْقِ المَعِيْشَةِ فَيَنْبَغِيْ لَهُ أَنْ يَشْكُرَ الله عَلَىٰ ذَلِكَ وَيَعُدَّهُ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا عَدُوَّةٌ وَالله يُقْبِلُ بِهَا عَلَىٰ أَعْدَائِهِ وَيَصْرِفُهَا عَنْ أَوْلِيَائِهِ، فَلْيَحْمَدْ الله الَّذِيْ شَبَّهَهُ بِأَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِيْنَ، فَلَقَدْ كَانَ سَيِّدُ المُرْسَلِيْنَ وَخَيْرُ الخَلْقِ أَجْمَعِيْنَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَرْبِطُ حَجَرًا عَلَىٰ بَطْنِهِ مِنَ الجُوْعِ، وَقَدْ يَمُرُّ شَهْرَانِ أَوْ أَكْثَرُ مَا تُوْقَدُ فِيْ بَيْتِهِ نَارٌ لِطَعَامٍ وَلَا غَيْرِهِ إِنَّمَا يَكُوْنُ عَلَىٰ التَّمْرِ وَالمَاءِ، وَنَزَلَ بِهِ ضَيْفٌ فَأَرْسَلَ إِلَىٰ أَبْيَاتِهِ التِّسْعِ فَلَمْ يُوْجَدْ فِيْهَا مَا يُطْعِمُهُ الضَّيْفَ. وَمَاتَ يَوْمَ مَاتَ وَدِرْعُهُ مَرْهُوْنَةٌ عِنْدَ يَهُوْدِيٍّ فِيْ أَصْوُعٍ مِنْ شَعِيْرٍ وَلَيْسَ فِيْ بَيْتِهِ مَا يَأْكُلُهُ ذُوْ كَبِدٍ كَفٌّ مِنْ شَعِيْرٍ، فَلْيَكُنْ قَصْدُكَ -أَيُّهَا المُرِيْدُ- وَهِمَّتُكَ مِنَ الدُّنْيَا خِرْقَةٌ تَسْتُرُ بِهَا عَوْرَتَكَ، وَلُقْمَةٌ تَسُدُّ بِهَا جَوْعَتَكَ مِنَ الحَلَالِ فَقَطْ.

وَإِيَّاكَ وَالسُّمَّ القَاتِلَ، وَهُوَ أَنْ تَشْتَاقَ إِلَىٰ التَّنَعُّمِ بِالدُّنْيَا وَتَرْغَبَ

فِيْ التَّمَتُّعِ بِشَهَوَاتِهَا وَتَغْبِطَ المُتَنَعِّمِيْنَ بِهَا مِنَ النَّاسِ، فَسَوْفَ يَسْأَلُوْنَ عَنْ نَعِيْمِهَا وَيُحَاسَبُوْنَ عَلَىٰ مَا أَصَابُوْهُ وَتَمَتَّعُوْا بِهِ مِنْ شَهَوَاتِهَا.

وَلَوْ أَنَّكَ عَرَفْتَ المَشَاقَّ الَّتِيْ يُقَاسُوْنَهَا وَالغُصَصَ الَّتِيْ يَتَجَرَّعُوْنَهَا وَالغُمُوْمَ وَالهُمُوْمَ الَّتِيْ فِيْ قُلُوْبِهِمْ وَصُدُوْرِهِمْ فِيْ طَلَبِ الدُّنْيَا وَفِيْ الحِرْصِ عَلَىٰ تَنْمِيَتِهَا وَالِاعْتِنَاءِ بِحِفْظِهَا، لَكُنْتَ تَرَىٰ ذَلِكَ يَزِيْدُ بِأَضْعَافٍ كَثِيْرَةٍ عَلَىٰ مَا هُمْ فِيْهِ مِنَ لَذَّةِ التَّنَعُّمِ بِالدُّنْيَا إِنْ كَانَتَ ثَمَّ لَذَّةٌ، وَيَكْفِيْكَ زَاجِرًا عَنْ مَحَبَّةِ الدُّنْيَا وَمُزَهِّدًا فِيْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الزُّخْرف:33-35].

وَقَوْلُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ: **«الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»**.[1] **وَ«لَوْ كَانَتْ تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوْضَةٍ مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»**.[2]

وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ مُنْذُ خَلَقَهَا مَا نَظَرَ إِلَيْهَا.

وَاعْلَمْ أَنَّ الرِّزْقَ مُقَدَّرٌ وَمَقْسُوْمٌ فَمِنَ العِبَادِ مَنْ بُسِطَ لَهُ وَوُسِّعَ عَلَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ ضُيِّقَ عَلَيْهِ وَقُتِّرَ؛ حِكْمَةً مِنَ اللهِ.

فَإِنْ كُنْتَ -أَيُّهَا المُرِيْدُ- مِنَ المُقَتَّرِ عَلَيْهِمْ فَعَلَيْكَ بِالصَّبْرِ وَالرِّضَا وَالقَنَاعَةِ بِمَا قَسَمَ لَكَ رَبُّكَ، وَإِنْ كُنْتَ مِنَ المُوَسَّعِ عَلَيْهِمْ فَأَصِبْ كِفَايَتَكَ وَخُذْ حَاجَتَكَ مِمَّا فِيْ يَدِكَ، وَاصْرِفْ مَا بَقِيَ فِيْ وُجُوْهِ الخَيْرِ وَسُبُلِ البِرِّ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَتَعَيَّنُ عَلَى الإِنْسَانِ إِذَا أَرَادَ الدُّخُوْلَ فِيْ طَرِيْقِ اللهِ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ مَالِهِ إِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ أَوْ يَتْرُكَ حِرْفَتَهُ وَتِجَارَتَهُ

---

(1) صحيح مسلم:ج4/ص2272 ح2956.

(2) سنن الترمذي:ج4/ص560 ح2320.

إِنْ كَانَ مُحْتَرِفًا أَوْ مُتَّجِرًا؛ بَلِ الَّذِيْ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ تَقْوَىٰ اللهِ فِيْمَا هُوَ فِيْهِ وَالإِجْمَالُ فِيْ الطَّلَبِ بِحَيْثُ لَا يَتْرُكُ فَرِيْضَةً وَلَا نَافِلَةً، وَلَا يَقَعُ فِيْ مُحَرَّمٍ وَلَا فَضُوْلٍ لَا تَصْلُحُ الِاسْتِعَانَةُ بِهِ فِيْ طَرِيْقِ اللهِ.

فَإِنْ عَلِمَ المُرِيْدُ أَنَّهُ لَا يَسْتَقِيْمُ قَلْبُهُ وَلَا يَسْلَمُ دِيْنُهُ إِلَّا بِالتَّجَرُّدِ عَنِ المَالِ وَعَنِ الأَسْبَابِ أَلْبَتَّةَ لَزِمَهُ ذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ لَهُ أَزْوَاجٌ أَوْ أَوْلَادٌ تَجِبُ نَفَقَتُهُمْ وَكِسْوَتُهُمْ لَزِمَهُ القِيَامَ بِذَلِكَ وَالسَّعْيَ لَهُ، فَإِنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ عَجْزًا يَعْذُرُهُ الشَّرْعُ فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الحَرَجِ وَسَلِمَ مِنَ الإِثْمِ.

وَاعْلَمْ أَيُّهَا المُرِيْدُ أَنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَىٰ مُلَازَمَةِ الطَّاعَاتِ وَمُجَانَبَةِ الشَّهَوَاتِ وَالإِعْرَاضِ عَنِ الدُّنْيَا إِلَّا بِأَنْ تَسْتَشْعِرَ فِيْ نَفْسِكَ أَنَّ مُدَّةَ بَقَائِكَ فِيْ الدُّنْيَا أَيَّامٌ قَلِيْلَةٌ، وَأَنَّكَ عَمَّا قَرِيْبٍ تَمُوْتُ، فَتَنْصِبَ أَجَلَكَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ، وَتَسْتَعِدَّ لِلْمَوْتِ وَتُقَدِّرَ نُزُوْلَهُ بِكَ فِيْ كُلِّ وَقْتٍ.

وَإِيَّاكَ وَطُوْلَ الأَمَلِ؛ فَإِنَّه يَمِيْلُ بِكَ إِلَىٰ مَحَبَّةِ الدُّنْيَا، وَيُثَقِّلُ عَلَيْكَ مُلَازَمَةَ الطَّاعَاتِ وَالإِقْبَالَ عَلَىٰ العِبَادَةِ وَالتَّجَرُّدَ لِطَرِيْقِ الآخِرَةِ وَفِيْ تَقْدِيْرِ قُرْبِ المَوْتِ وَقِصَرِ المُدَّةِ الخَيْرُ كُلُّهُ، فَعَلَيْكَ بِهِ، وَفَّقَنَا الله وَإِيَّاكَ.

فَصْلٌ في الصبر على أذى النَّاس والحذر من فتنتهم

وَرُبَّمَا تَسَلَّطَ الخَلْقُ عَلَىٰ بَعْضِ المُرِيْدِيْنَ بِالإِيْذَاءِ وَالجَفَاءِ وَالذَّمِّ، فَإِنْ بُلِيْتَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَعَلَيْك بِالصَّبْرِ وَتَرْكِ المُكَافَأَةِ مَعَ نَظَافَةِ القَلْبِ مِنَ الحِقْدِ وَإِضْمَارِ الشَّرِّ، وَاحْذَرِ الدُّعَاءَ عَلَىٰ مَنْ آذَاكَ وَلَا تَقُلْ إِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيْبَةٌ هَذَا بِسَبَبِ أَذَاهُ لِيْ.

وَأَفْضَلُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَىٰ الأَذَىٰ العَفْوُ عَنِ المُؤْذِيْ وَالدُّعَاءِ لَهُ وَذَلِكَ مِنْ أَخْلَاقِ الصِّدِّيْقِيْنَ. وَعُدَّ إِعْرَاضَ الخَلْقِ عَنْكَ نِعْمَةً عَلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فَإِنَّهُمْ لَوْ أَقْبَلُوْا عَلَيْكَ رُبَّمَا شَغَلُوْكَ عَنْ طَاعَتِهِ، فَإِنِ ابْتُلِيْتَ بِإِقْبَالِهِمْ وَتَعْظِيْمِهِمْ وَثَنَائِهِمْ وَتَرَدُّدِهِمْ عَلَيْكَ، فَاحْذَرْ مِنْ فِتْنَتِهِمْ وَاشْكُرِ الله الَّذِيْ سَتَرَ مَسَاوِيْكَ عَنْهُمْ.

ثُمَّ إِنْ خَشِيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ مِنَ التَّصَنُّعِ وَالتَّزَيُّنِ لَهُمْ وَالِاشْتِغَالِ عَنِ الله بِمُخَالَطَتِهِمْ فَاعْتَزِلْهُمْ وَأَغْلِقْ بَابَكَ عَنْهُمْ، وِإِلَّا فَارِقْ المَوْضِعَ الَّذِيْ عُرِفْتَ بِهِ إِلَىٰ مَوْضِعٍ لا تُعْرَفُ فِيْهِ.

وَكُنْ مُؤَثِّرًا لِلْخُمُوْلِ، فَارًّا مِنَ الشُّهْرَةِ وَالظُّهُوْرِ، فَإِنَّ فِيْهِ الفِتْنَةَ وَالمِحْنَةَ. قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: وَالله، مَا صَدَقَ الله عَبْدٌ إِلَّا أَحَبَّ أَنْ لَا يُشْعَرَ بِمَكَانِهِ.

وَقَالَ آخَرُ: مَا أَعْرِفُ رَجُلًا أَحَبَّ أَنْ يَعْرِفَهُ النَّاسُ إِلَّا ذَهَبَ دِيْنَهُ وَافْتَضَحَ.

فَصْلٌ في اطراح مراقبة الخلق

وَاجْتَهِدْ أَيُّهَا المُرِيْدُ فِيْ تَنْزِيْهِ قَلْبِكَ مِنْ خَوْفِ الخَلْقِ وَمِنَ الطَّمَعِ فِيْهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ يَحْمِلُ عَلَىٰ السُّكُوْتِ عَلَىٰ البَاطِلِ وَعَلَىٰ المُدَاهَنَةِ فِيْ الدِّيْنِ، وَعَلَىٰ تَرْكِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوْفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَكَفَىٰ بِهِ ذُلًّا لِصَاحِبِهِ؛ لأَنَّ المُؤْمِنَ عَزِيْزٌ بِرَبِّهِ لَا يَخَافُ وِلَا يَرْجُوْ أَحَدًا سِوَاهُ.

وَإِنْ وَصَلَكَ أَحَدٌ مِنْ إِخْوَانِكَ المُسْلِمِيْنَ بِمَعْرُوْفٍ مِنْ وَجْهٍ طَيِّبٍ فَخُذْهُ إِنْ كُنْتَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ وَاشْكُرِ اللهَ فَإِنَّهُ المُعْطِيْ حَقِيْقَةً وَاشْكُرْ مَنْ أَوْصَلَهُ إِلَيْكَ عَلَىٰ يَدِهِ مِنْ عِبَادِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَكَ حَاجَةٌ إِلَيْهِ فَانْظُرْ فَإِنْ وَجَدْتَ الأَصْلَحَ لِقَلْبِكَ أَخْذَهُ فَخُذْهُ، أَوْ رُدَّهُ فَرُدَّهُ بِرِفْقٍ بِحَيْثُ لَا يَنْكَسِرُ قَلْبُ المُعْطِيْ فَإِنَّ حُرْمَةَ المُسْلِمِ عِنْدَ اللهِ عَظِيْمَةٌ.

وَإِيَّاكَ وَالرَّدَّ لِلشُّهْرَةِ وَالأَخْذِ بِالشَّهْوَةِ وَلِأَنْ تَأْخُذَهُ بِالشَّهْوَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَرُدَّهُ لِلشُّهْرَةِ بِالزُّهْدِ وَالإِعْرَاضِ عَنِ الدُّنْيَا، وَالصَّادِقُ

لِا يَلْتَبِسُ عَلَيْهِ أَمْرٌ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ رَبُّهُ نُوْرًا فِيْ قَلْبِهِ يَعْرِفُ بِهِ مَا يُرَادُ مِنْهُ.

فَصْلٌ
في الزجر عن طلب المكاشفات والكرامات

وَمِنْ أَضَرِّ شَيْءٍ عَلَىٰ المُرِيْدِ طَلَبُهُ لِلْمُكَاشَفَاتِ وَاشْتِيَاقُهُ إِلَىٰ الكَرَامَاتِ وَخَوَارِقِ العَادَاتِ، وَهِيَ لَا تَظْهَرُ لَهُ مَا دَامَ مُشْتَهِيًا لِظُهُوْرِهَا؛ لِأَنَّهَا لَا تَظْهَرُ إِلَّا عَلَىٰ يَدِ مَنْ يَكْرَهُهَا وَلَا يُرِيْدُهَا غَالِبًا.

وَقَدْ تَقَعُ لِطَوَائِفَ مِنَ المَغْرُوْرِيْنَ اسْتِدْرَاجًا لَهُمْ وَابْتِلَاءً لِضَعَفَةِ المُؤْمِنِيْنَ مِنْهُمْ، وَهِيَ فِيْ حَقِّهِمْ إِهَانَاتٌ وَلَيْسَتْ كَرَامَاتٍ، إِنَّمَا تَكُوْنُ كَرَامَاتٍ إِذَا ظَهَرَتْ عَلَىٰ أَهْلِ الِاسْتِقَامَةِ، فَإِنْ أَكْرَمَكَ الله -أَيُّهَا المُرِيْدُ- بِشَيْءٍ مِنْهَا فَاحْمَدْهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ.

وَلَا تَقِفْ مَعَ مَا ظَهَرَ لَكَ وَلَا تَسْكُنْ إِلَيْهِ، وَاكْتُمْهُ وَلَا تُحَدِّثْ بِهِ النَّاسَ، وَإِنْ لَمْ يَظْهَرْ لَكَ مِنْهَا شَيْءٌ فَلَا تَتَمَنَّاهُ وَلَا تَأْسَفْ عَلَىٰ فَقْدِهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الكَرَامَةَ الجَامِعَةَ لِجَمِيْعِ أَنْوَاعِ الكَرَامَاتِ الحَقِيْقِيَّاتِ

وَالصُّوْرِيَّاتِ هِيَ الِاسْتِقَامَةُ المُعَبَّرُ عَنْهَا بِامْتِثَالِ الأَوَامِرِ وَاجْتِنَابِ المَنَاهِيْ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فَعَلَيْكَ بِتَصْحِيْحِهَا وَإِحْكَامِهَا تَخْدُمْكَ الأَكْوَانُ العُلْوِيَّةُ وَالسُّفْلِيَّةُ خِدْمَةً لَا تَحْجُبُكَ عَنْ رَبِّكَ وَلَا تَشْغَلُكَ عَنْ مُرَادِهِ مِنْكَ.

فَصْلٌ في طلب الرزق والسعي إليه

وَلْتَكُنْ أَيُّهَا المُرِيْدُ حَسَنَ الظَّنِّ بِرَبِّكَ أَنَّهُ يُعِيْنُكَ وَيَكْفِيْكَ وَيَحْفَظُكَ وَيَقِيْكَ وَلَا يَكِلُكَ إِلَىٰ نَفْسِكَ وَلَا إِلَىٰ أَحَدٍ مِنَ الخَلْقِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِهِ بِهِ، وأَخْرَجَ مِنْ قَلْبِكَ خَوْفَ الفَقْرِ وَتَوَقُّعِ الحَاجَةِ إِلَىٰ النَّاسِ.

وَاحْذَرْ كُلَّ الحَذَرِ مِنَ الاِهْتِمَامِ بِأَمْرِ الرِّزْقِ وَكُنْ وَاثِقًا بِوَعْدِ رَبِّكَ وَتَكَفُّلِهِ بِكَ، حَيْثُ يَقُوْلُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6] وَأَنْتَ مِنْ جُمْلَةِ الدَّوَابِ، فَاشْتَغِلْ بِمَا طَلَبَ مِنْكَ مِنَ العَمَلِ لَهُ عَمَّا ضَمِنَ لَكَ مِنَ الرِّزْقِ فَإِنَّ مَوْلَاكَ لَا يَنْسَاكَ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ أَنَّ رِزْقَكَ عِنْدَهُ وَأَمَرَكَ بِطَلَبِهِ مِنْهُ بِالعِبَادَةِ. فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: 17]. أَمَا تَرَاهُ سُبْحَانَهُ يَرْزُقُ الكَافِرِيْنَ بِهِ الَّذِيْنَ يَعْبُدُوْنَ غَيْرَهُ؟ أَفَتَرَاهُ لَا يَرْزُقُ المُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ لَا يَعْبُدُوْنَ سِوَاهُ، وَيَرْزُقُ العَاصِيْنَ لَهُ وَالمُخَالِفِيْنَ لِأَمْرِهِ أَوْ لَا يَرْزُقُ

المُطِيْعِيْنَ لَهُ المُكْثِرِيْنَ مِنْ ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ؟

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَيْكَ فِيْ طَلَبِ الرِّزْقِ بِالحَرَكَاتِ الظَّاهِرَةِ عَلَىٰ الوَجْهِ المَأْذُوْنِ لَكَ فِيْهِ شَرْعًا، وَإِنَّمَا البَأْسُ وَالحَرَجُ فِي عَدَمِ سُكُوْنِ القَلْبِ وَاهْتِمَامِهِ وَاضْطِرَابِهِ وَمُتَابَعَتِهِ لِأَوْهَامِهِ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ خَرَابِ القَلْبِ اهْتِمَامُ الإِنْسَانِ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِيْ وَقْتٍ لِمْ يَخْرُجْ مِنَ العَدَمِ، كَاليَوْمِ المُقْبِلِ وَالشَّهْرِ الآتِيْ، وَقَوْلُهُ: إِذَا نَفِدَ هَذَا فَمِنْ أَيْنَ يَجِيءُ غَيْرُهُ، وَإِذَا لَمْ يَجِئِ الرِّزْقُ مِنْ هَذَا الوَجْهِ فَمِنْ أَيِّ وَجْهٍ يَأْتِيْ؟

وَأَمَّا التَجَرُّدُ عَنِ الأَسْبَابِ وَالدُّخُوْلِ فِيْهَا فَهُمَا مَقَامَانِ يُقِيْمُ اللهُ فِيْهِمَا مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَشَاءُ فَمَنْ أُقِيْمَ فِيْ التَّجُرُّدِ فَعَلَيْهِ بِقُوَّةِ اليَقِيْنِ وَسِعَةِ الصَّدْرِ وَمُلَازَمَةِ العِبَادَةِ. وَمَنْ أُقِيْمَ فِيْ الأَسْبَابِ فَعَلَيْهِ بِتَقْوَىٰ اللهِ فِيْ سَبَبِهِ وَبِالِاعْتِمَادِ عَلَىٰ اللهِ دُوْنَهُ، وَلْيَحْذَرْ مِنَ الِاشْتِغَالِ بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ، وَقَدْ تَرِدُ عَلَىٰ المُرِيْدِ خَوَاطِرُ فِيْ أَمْرِ الرِّزْقِ وَفِيْ مُرَاءَاةِ الخَلْقِ، وَفِيْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَلَيْسَ مَلُوْمًا وَلَا مَأْثُوْمًا عَلَيْهَا إِذَا كَانَ كَارِهًا لَهَا وَمُجْتَهِدًا فِيْ نَفْيِهَا مِنْ قَلْبِهِ.

فَصْلٌ في صُحبة الأخيار
وأدب المريد مع شيخه وأوصاف الشيخ الكامل

وَلْتَكُنْ لَكَ -أَيُّهَا المُرِيْدُ- عِنَايَةٌ تَامَّةٌ بِصُحْبَةِ الأَخْيَارِ وَمُجَالَسَةِ الصَّالِحِيْنَ الأَبْرَارِ. وَكُنْ شَدِيْدَ الحِرْصِ عَلَىٰ طَلَبِ شَيْخٍ صَالِحٍ مُرْشِدٍ نَاصِحٍ، عَارِفٍ بِالشَّرِيْعَةِ، سَالِكٍ لِلطَّرِيْقَةِ، ذَائِقٍ لِلْحَقِيْقَةِ، كَامِلِ العَقْلِ وَاسِعِ الصَّدْرِ، حَسَنِ السِّيَاسَةِ عَارِفٍ بِطَبَقَاتِ النَّاسِ مُمَيِّزٍ بَيْنَ غَرَائِزِهِمْ وَفِطَرِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ.

فَإِنْ ظَفَرْتَ بِهِ فَأَلْقِ نَفْسَكَ عَلَيْهِ وَحَكِّمْهُ فِيْ جَمِيْعِ أُمُوْرِكَ وَارْجِعْ إِلَىٰ رَأْيِهِ وَمَشُوْرَتِهِ فِيْ كُلِّ شَأْنِكَ وَاقْتَدِ بِهِ فِيْ جَمِيْعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ إِلَّا فِيْمَا يَكُوْنُ خَاصًّا مِنْهَا بِمَرْتَبَةِ المَشْيَخَةِ، كَمُخَالَطَةِ النَّاسِ وَمُدَارَاتِهِمْ وَدَعْوَةِ القَرِيْبِ وَالبَعِيْدِ إِلَىٰ اللهِ وَمَا أَشْبَهُ ذَلِكَ فَتُسَلِّمَهُ لَهُ، وَلَا تَعْتَرِضْ عَلَيْهِ فِيْ شَيْءٍ مِنْ أَحْوَالِهِ لَا ظَاهِرًا وَلَا بَاطِنًا وَإِنْ وَقَعَ فِيْ قَلْبِكَ شَيْءٌ مِنَ الخَوَاطِرِ فِيْ جِهَتِهِ فَاجْتَهِدْ فِيْ نَفْيِهِ عَنْكَ فَإِنْ لَمْ يَنْتَفِ فَحَدِّثْ بِهِ الشَّيْخَ لِيُعَرِّفَكَ وَجْهَ الخَلَاصِ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ تُخْبِرُهُ بِكُلِّ مَا يَقَعُ لَكَ خُصُوْصًا فِيْمَا

يَتَعَلَّقُ بِالطَّرِيْقِ.

وَاحْذَرْ أَنْ تُطِيْعَهُ فِيْ العَلَانِيَةِ وَحَيْثُ تَعْلَمُ أَنَّهُ يَطَّلِعُ عَلَيْكَ وَتَعْصِيْهِ فِيْ السِّرِّ وَحَيْثُ لَا يَعْلَمُ فَتَقَعُ فِيْ الهَلَاكِ.

وَلَا تَجْتَمِعَ بِأَحَدٍ مِنَ المَشَايِخِ المُتَظَاهِرِيْنَ بِالتَّسْلِيْكِ إِلَّا عَنْ إِذْنِهِ، فَإِنْ أَذِنَ لَكَ فَاحْفَظْ قَلْبَكَ وَاجْتَمِعْ بِمَنْ أَرَدْتَ وَإِنْ لَمْ يَأْذَنْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ آثَرَ مَصْلَحَتَكَ فَلَا تَتَّهِمْهُ وَتَظُنَّ بِهِ الحَسَدَ وَالغَيْرَةَ، مَعَاذَ اللهِ أَنْ يَصْدُرَ عَنْ أَهْلِ اللهِ وَخَاصَّتِهِ مِثْلُ ذَلِكَ.

وَاحْذَرْ مِنْ مُطَالَبَةِ الشَّيْخِ بِالكَرَامَاتِ وَالمُكَاشَفَةِ بِخَوَاطِرِكَ فَإِنَّ الغَيْبَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، وَغَايَةُ الوَلِيِّ أَنْ يُطْلِعَهُ اللهُ عَلَىٰ بَعْضِ الغُيُوْبِ فِيْ بَعْضِ الأَحْيَانِ، وَرُبَّمَا دَخَلَ المُرِيْدُ عَلَىٰ شَيْخِهِ يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يُكَاشِفَهُ بِخَاطِرِهِ فَلَا يُكَاشِفُهُ وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ وَمُكَاشَفٌ بِهِ؛ صِيَانَةً لِلسِّرِّ وَسَتْرًا لِلْحَالِ فَإِنَّهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَىٰ كِتْمَانِ الأَسْرَارِ وَأَبْعَدُهُمْ عَنِ التَّظَاهُرِ بِالكَرَامَاتِ وَالخَوَارِقِ

وَإِنْ مُكِّنُوْا مِنْهَا وَصُرِّفُوْا فِيْهَا.

وَأَكْثَرُ الكَرَامَاتِ الوَاقِعَةِ مِنَ الأَوْلِيَاءِ وَقَعَتْ بِدُوْنِ اخْتِيَارِهِمْ، وَكَانُوْا إِذَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ يُوصُوْنَ مَنْ ظَهَرَ لَهُ أَنْ لَا يُحَدِّثَ بِهِ حَتَّىٰ يَخْرُجُوْا مِنَ الدُّنْيَا، وَرُبَّمَا أَظْهَرُوْا مِنْهَا شَيْئًا اخْتِيَارًا لِمَصْلَحَةٍ تَزِيْدُ عَلَىٰ مَصْلَحَةِ السَّتْرِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّيْخَ الكَامِلَ هُوَ الَّذِيْ يُفِيْدُهُ بِهِمَّتِهِ وَفِعْلِهِ وَقَوْلِهِ وَيَحْفَظُهُ فِيْ حُضُوْرِهِ وَغَيْبَتِهِ. وَإِنْ كَانَ المُرِيْدُ بَعِيْدًا عَنْ شَيْخِهِ مِنْ حَيْثُ المَكَانُ، فَلْيَطْلُبْ مِنْهُ إِشَارَةً كُلِّيَّةً فِيْمَا يأْتِيْ مِنْ أَمْرِهِ وَيَتْرُكُ. وَأَضَرُّ شَيْءٍ عَلَىٰ المُرِيْدِ تَغَيُّرُ قَلْبِ الشَّيْخِ عَلَيْهِ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَىٰ إِصْلَاحِهِ بَعْدَ ذَلِكَ مَشَايِخُ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ لَمْ يَسْتَطِيْعُوْهُ إِلَّا أَنْ يَرْضَىٰ عَنْهُ شَيْخُهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِيْ لِلْمُرِيْدِ الَّذِيْ يَطْلُبُ شَيْخًا أَنْ لَا يُحَكِّمَ فِيْ نَفْسِهِ كُلَّ مَنْ يُذْكَرُ بِالمَشْيَخَةِ وَتَسْلِيْكِ المُرِيْدِيْنَ حَتَّىٰ يَعْرِفَ أَهْلِيَّتَهُ وَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ قَلْبُهُ، وَكَذَلِكَ لَا يَنْبَغِيْ لِلشَّيْخِ إِذَا جَاءَ

المُرِيْدُ يَطْلُبُ الطَّرِيْقَ أَنْ يَسْمَحَ لَهُ بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَخْتَبِرَ صِدْقَهُ فِيْ طَلَبِهِ، وَشِدَّةِ تَعَطُّشِهِ إِلَىٰ مَنْ يَدُلَّهُ عَلَىٰ رَبِّهِ.

وَهَذَا كُلُّهُ فِيْ شَيْخِ التَّحْكِيْمِ، وَقَدْ شَرَطُوْا عَلَىٰ المُرِيْدِ أَنْ يَكُوْنَ مَعَهُ كَالمَيِّتِ بَيْنَ يَدَيِّ الغَاسِلِ وَكَالطِّفْلِ مَعَ أُمِّهِ، وَلَا يَجْرِيْ هَذَا فِيْ شَيْخِ التَّبَرُّكِ، وَمَهْمَا كَانَ قَصْدُ المُرِيْدِ التَّبَرُّكَ دُوْنَ التَّحْكِيْمِ فَكُلَّمَا أَكْثَرَ مِنْ لِقَاءِ المَشَايِخِ وَزِيَارَتِهِمْ وَالتَّبَرُّكِ بِهِمْ كَانَ أَحْسَنَ.

وَإِذَا لَمْ يَجِدِ المُرِيْدُ شَيْخًا فَعَلَيْهِ بِمُلَازَمَةِ الجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ مَعَ كَمَالِ الصِّدْقِ فِيْ الِالْتِجَاءِ إِلَىٰ اللهِ وَالِافْتِقَارِ إِلَيْهِ فِيْ أَنْ يُقَيِّضَ لَهُ مَنْ يُرْشِدُهُ، فَسَوْفَ يُجِيْبُهُ مِنْ يُجِيْبُ المُضْطَرَّ، وَيَسُوْقُ إِلَيْهِ مَنْ يَأْخُذُ بِيَدِهِ مِنْ عِبَادِهِ.

وَقَدْ يَحْسِبُ بِعْضُ المُرِيْدِيْنَ أَنَّهُ لَا شَيْخَ لَهُ فَتَجِدُهُ يَطْلُبُ الشَّيْخَ وَلَهُ شَيْخٌ لَمْ يَرَهُ، يُرَبِّيَهُ بِنَظَرِهِ وَيُرَاعِيْهِ بِعَيْنِ عِنَايَتِهِ وَهُوَ

لَا يَشْعُرُ، وَعِنْدَ التَّنَاصُفِ مَا ذَهَبَ إِلَّا الصِّدْقُ[1]، وَإِلَّا فَالمَشَايِخُ فَالمَشَايِخُ المُحَقِّقُوْنَ مَوْجُوْدُوْنَ، وَلَكِنْ سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ الدَّلِيْلِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ إِلَّا مِنْ حَيْثُ الدَّلِيْلُ عَلَيْهِ وَلَمْ يُوْصِلْ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُوْصِلَهُ إِلَيْهِ[2].

---

(1) أَيْ عِنْدَ مُوَازَنَةِ مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ لِكَيْ يُسْمَحَ لَهُ بِالوُصُوْلِ إِلَى غَايَتِهِ، يَكُوْنُ الفَيْصَلَ وَالعَامِلَ الأَسَاسِيَّ صِدْقُهُ مَعَ اللهِ، فَمَنْ صَدَقَ مَعَ مَوْلَاهُ دَلَّهُ بِلَا شَكٍّ عَلَى مَنْ يَدُلُّهُ عَلَيْهِ وَيُوْصِلُهُ إِلَى حَضْرَتِهِ.

(2) هَذِهِ حِكْمَةٌ مِنَ الحِكَمِ العَطَائِيَّةِ: (سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ الدَّلِيْلَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ إِلَّا مِنْ حَيْثُ الدَّلِيْلَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُوْصِلْ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُوْصِلَهُ إِلَيْهِ). قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ عِجِيْبَةٍ فِيْ تَفْسِيْرِهِ لِلْحِكَمِ العَطَائِيَّةِ: الدَّلِيْلُ هُوَ المُوْصِلُ لِلْمَطْلُوْبِ، فَإِذَا سَارَ الحَقُّ تَعَالَى بِكَ إِلَى وَلِيٍّ عَارِفٍ بِهِ وَدَلَّكَ عَلَيْهِ فَقَدْ سَارَ بِكَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ وَدَلَّكَ عَلَيْهِ، فَمَهْمَا دَلَّكَ عَلَى وَلِيِّهِ وَأَطْلَعَكَ عَلَى سِرِّهِ فَقَدْ دَلَّكَ عَلَيْهِ وَوَصَّلَكَ إِلَى حَضْرَتِهِ سَرِيْعًا. فَلَمْ يَجْعَلْ الحَقُّ سُبْحَانَهُ الدَّلَالَةَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَالوُصُوْلَ إِلَيْهِمْ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُوْصِلْ أَحَدًا إِلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُوْصِلَهُ إِلَيْهِ.

تتمة لآداب المريد مع شيخه

وَإِذَا أَرَدْتَ -أَيُّهَا المُرِيْدُ- مِنْ شَيْخِكَ أَمْرًا أَوْ بَدَا لَكَ أنْ تَسْأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَلاَ يَمْنَعُكَ إِجْلَالُهُ وَالتَّأَدُّبُ مَعَهُ عَنْ طَلَبِهِ مِنْهُ وَسُؤَالِهِ عَنْهُ، وَتَسْأَلُهُ المَرَّةَ وَالمَرَّتَيْنِ وَالثَّلَاثَ، فَلَيْسَ السُّكُوتُ عَنِ السُّؤَالِ وَالطَلَبِ مِنْ حُسْنِ الأَدَبِ، اللّٰهُمَّ إلاَّ أنْ يُشِيْرَ عَلَيْكَ الشَّيْخُ بِالسُّكُوتِ وَيَأْمُرَكَ بِتَرْكِ السُّؤَالِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْكَ امْتِثَالُهُ.

وَإِذَا مَنَعَكَ الشَّيْخُ عَنْ أَمْرٍ أَوْ قَدَّمَ عَلَيْكَ أحَدًا فَإِيَّاكَ أنْ تَتَّهِمَهُ، وَلْتكُنْ مُعْتَقِدًا أَنَّهُ قَدْ فَعَلَ مَا هُوَ الأَنْفَعُ وَالأَحْسَنُ لَكَ، وَإِذَا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ وَوَجَدَ عَلَيْكَ الشَّيْخُ بِسَبَبِهِ فَبَادِرْ بِالاِعْتِذَارِ إِلَيْهِ مِنْ ذَنبِكَ حَتَّىٰ يَرْضَىٰ عَنْكَ.

وَإِذَا أَنْكَرْتَ قَلْبَ الشَّيْخِ عَلَيْكَ كَأَنْ فَقَدْتَ مِنْهُ بِشْرًا كُنْتَ تَأْلَفُهُ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، فَحَدِّثْهُ بِمَا وَقَعَ لَكَ مِنْ تَخَوُّفِكَ تَغَيُّرَ قَلْبِهِ عَلَيْكَ فَلَعَلَّهُ تَغَيَّرَ عَلَيْكَ لِشَيءٍ أَحْدَثْتَهُ فَتَتُوْبُ عَنْهُ، أَوْ لَعَلَّ الَّذِي تَوَهَّمْتَهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الشَّيْخِ وَأَلْقَاهُ الشَّيْطَانُ إِلَيْكَ

لِيَسُوءَكَ بِهِ، فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشَّيْخَ رَاضٍ عَنْكَ سَكَنَ قَلْبُكَ بِخِلَافِ مَا إِذَا لَمْ تُحَدِّثْهُ وَسَكَتَّ بِمَعْرِفَةٍ مِنْكَ بِسَلَامَةِ جِهَتِكَ.

وَإِذَا رَأَيْتَ المُرِيْدَ مُمْتَلِئًا بِتَعْظِيْمِ شَيْخِهِ وَإِجْلَالِهِ مُجْتَمِعًا بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ عَلَىٰ اعْتِقَادِهِ وَامْتِثَالِهِ وَالتَّأَدُّبِ بِآدَابِهِ فَلَابُدَّ أَنْ يَرِثَ سِرَّهُ أَوْ شَيْئًا مِنْهُ إِنْ بَقِيَ بَعْدَهُ.

خاتمة في أوصاف المريد الصادق وما يجب عليه

نَذْكُرُ فِيْهَا شَيْئًا مِنْ أَوْصَافِ الـمُرِيْدِ الصَّادِقِ

قَالَ بَعْضُ العَارِفِيْنَ رضي الله عنهم وَنَفَعَنَا بِهِمْ أَجْمَعِينَ:

• لَا يَكُونُ المُرِيْدُ مُرِيْدًا حَتَّىٰ يَجِدَ فِيْ القُرْآنِ كُلَّ مَا يُرِيْدُ، وَيَعْرِفَ النُّقْصَانَ مِنَ المَزِيْدِ، وَيَسْتَغْنِيَ بِالمَوْلَىٰ عَنِ العَبِيْدِ، وَيَسْتَوِيْ عِنْدَهُ الذَّهَبُ وَالصَّعِيْدُ.

• المُرِيْدُ مَنْ حَفِظَ الحُدُودَ، وَوَفَّىٰ بِالعُهُودِ وَرَضِيَ بِالمَوْجُودِ، وَصَبَرَ عَنِ المَفْقُودِ.

• المُرِيْدُ مَنْ شَكَرَ عَلَىٰ النَّعْمَاءِ، وَصَبَرَ عَلَىٰ البَلَاءِ، وَرَضِيَ بِمُرِّ القَضَاءِ، وَحَمِدَ رَبَّهُ فِيْ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَأَخْلَصَ لَه فِيْ السِّرِّ والنَّجْوَىٰ.

• المُرِيْدُ مَنْ لَا تَسْتَرِقُّهُ الأَغْيَارُ، وَلَا تَسْتَعْبِدُهُ الآثَارُ، وَلَا تَغْلِبُهُ الشَّهَوَاتُ، وَلَا تَحْكُمُ عَلَيْهِ العَادَاتُ. كَلَامُهُ ذِكْرٌ وَحِكْمَةٌ، وَصَمْتُهُ فِكْرَةٌ وَعِبْرَةٌ، يَسْبِقُ فِعْلُهُ قَوْلَهُ وَيُصَدِّقُ عِلْمَهُ

عَمَلُهُ، شِعَارُهُ الخُشُوعُ وَالوَقَارُ، وَدِثَارُهُ التّوَاضُعُ وَالاِنْكِسَارُ، يَتَّبِعُ الحَقَّ وَيُؤْثِرُهُ، وَيَرْفُضُ البَاطِلَ وَيُنْكِرُهُ، يُحِبُّ الأَخْيَارَ وَيُوَالِيْهِمْ، وَيُبْغِضُ الأَشْرَارَ وَيُعَادِيْهِمْ، خُبْرُهُ أَحْسَنُ مِنْ خَبَرِهِ، وَمُعَاشَرَتُهُ أَطْيَبُ مِنْ ذِكْرِهِ، كَثِيْرُ المَعُونَةِ، خَفِيْفُ المَؤُوْنَةِ، بَعِيْدٌ عَنِ الرُّعُونَةِ. أَمِيْنٌ مَأمُونٌ، لَا يَكْذِبُ وَلَا يَخُونُ، لَا بَخِيْلًا وَلَا جَبَانًا، وَلَا سَبَّابًا وَلَا لَعَّانًا، وَلَا يَشْتَغِلُ عَنْ بُدِّهِ، وَلَا يَشِحُّ بِمَا فِيْ يَدِهِ. طَيِّبُ الطَّوِيَّةِ، حَسَنُ النِّيَّةِ، سَاحَتُهُ مِنْ كُلِّ شَرٍ نَقِيَّةٌ، وَهِمَّتُهُ فِيْمَا يُقَرِّبُهُ مِنْ رَبِّهِ عَلِيَّةٌ، وَنَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا أَبِيَّةٌ، لَا يُصِرُّ عَلَى الهَفْوَةِ، وَلَا يُقْدِمُ وَلَا يُحْجِمُ بِمُقْتَضَى الشَّهْوَةِ، قَرِيْنُ الوَفَاءِ وَالفُتوَّةِ، حَلِيْفُ الحَيَاءِ وَالمُروَّةِ، يُنْصِفُ كُلَّ أحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ وَلَا يَنْتَصِفُ لَهَا مِنْ أحَدٍ. إِنْ أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِنْ مُنِعَ صَبَرَ، وَإِنْ ظَلَمَ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ، وَإِنْ ظُلِمَ عَفَا وَغَفَرَ، يُحِبُّ الخُمُولَ وَالاِسْتِتَارَ، وَيَكْرَهُ الظّهُورَ والاِشْتِهَارَ، لِسَانُهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَعْنِيْهِ مَخْزُونٌ، لَا يُدَاهِنُ فِيْ الدِّينِ وَلَا يُرْضِيْ المَخْلُوقِينَ

بِسُخْطِ رَبِّ العَالَمِيْنَ، يَأنَسُ بِالْوِحْدَةِ وَالِانْفِرَادِ، وَيَسْتَوْحِشُ مِنْ مُخَالَطَةِ العِبَادِ، وَلَا تَلْقَاهُ إِلّا عَلَىٰ خَيْرٍ يَعْمَلُهُ، أوْ عِلْمٍ يُعَلِّمُهُ، يُرْجَىٰ خَيْرُهُ، وَلَا يُخْشَىٰ شَرُّهُ، وَلَا يُؤْذِيْ مَنْ آذَاهُ، وَلَا يَجْفُو مَنْ جَفَاهُ، كَالنَّخْلَةِ تُرمَىٰ بِالحَجَرِ فَتَرْمِي بِالرُّطَبِ، وَكَالأَرْضِ يُطْرَحُ عَلَيْهَا كُلُّ قَبِيْحٍ وَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَّا كُلُّ مَلِيْحٍ، تلوُحُ أَنْوَارُ صِدْقِهِ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ، وَيَكَادُ يُفْصِحُ مَا يُرَىٰ عَلَىٰ وَجْهِهِ عَمَّا يُضْمِرُ فِيْ سَرَائِرِهِ، سَعْيُهُ وَهِمَّتُهُ فِيْ رِضَا مَوْلَاهُ، وَحِرْصُهُ وَنَهْمَتُهُ فِيْ مُتَابَعَةِ رَسُوْلِهِ وَحَبِيبِهِ وَمُصْطَفَاهُ، يَتَأَسَّىٰ بِهِ فِيْ جَمِيْعِ أَحْوَالِهِ، وَيَقْتَدِيَ بِهِ فِيْ أَخْلَاقِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، مُمتَثِلًا لِأَمْرِ رَبِّهِ العَظِيْمِ فِيْ كِتَابِهِ الكَرِيْمِ حَيْثُ يَقُولُ:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: 7]، ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: 21]، ﴿ مَّن يُطِعِ

ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: 80]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10]، ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران:31]، ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63].

فَتَرَاهُ فِيْ غَايَةِ الحِرْصِ عَلَىٰ مُتَابَعَةِ نَبِيِّهِ مُمْتَثِلًا لِأَمْرِ رَبِّهِ وَرَاغِبًا فِيْ الوَعْدِ الكَرِيْمِ وَهَارِبًا مِنَ الوَعِيْدِ الأَلِيْمِ الوَارِدِيْنَ فِيْ الآيَاتِ الَّتِيْ أَوْرَدْنَاهَا وَفِيْمَا لَمْ نُوْرِدْهُ مِمَّا هُوَ فِيْ مَعْنَاهَا المُشْتَمِلَةِ عَلَىٰ البِشَارَةِ بِغَايَةِ الفَوْزِ وَالفَلَاحِ لِلْمُتَّبِعِيْنَ لِلرَّسُوْلِ، وَعَلَىٰ النَّذَارَةِ بِغَايَةِ الخِزْيِ وَالهَوَانِ لِلْمُخَالِفِيْنَ لَهُ.

(اللّٰهُمَّ) إِنَّا نَسْأَلُكَ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِيْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الحَنَّانُ المَنَّانُ بِدَيْعُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ يَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ أَنْ تَرْزُقَنَا كَمَالَ المُتَابَعَةِ لِعَبْدِكَ وَرَسُوْلِكَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فِيْ أَخْلَاقِهِ

وَأَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَتُحْيِينَا وَتُمِيْتَنَا عَلَىٰ ذَلِكَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ.

(اللَّهُمَّ) رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ حَمْدًا كَثِيْرًا طَيِّبًا مُبارَكًا فِيْهِ كَمَا يَنْبَغِيْ لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيْمِ سُلْطَانِكَ ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة: 32]. ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾[الأنبياء: 87].

***

تَمَّتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ لِلْمُرِيْدِ المَخْصُوْصِ مِنْ رَبِّهِ المَجِيْدِ بِالتَّثْبِيْتِ وَالتَّأَيِيْدِ وَالتَّسْدِيْدِ، وَكَانَ بِحَمْدِ اللهِ إِمْلَاؤُهَا فِيْ سَبْعِ لَيَالٍ أَوْ ثَمَانٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ إِحْدَىٰ وَسَبْعِيْنَ وَأَلْفٍ مِنْ هِجْرَتِهِ ﷺ تَسْلِيْمًا كَثِيْرًا وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	5
مقدمة المؤلف	9
فَصْلٌ في أنّ أول الطريق باعث قوي إلهي وأنه يجب تقويته وحفظه وإجابته	13
فَصْلٌ في التوبة وشروطها والاحتراز من الذنوب كلّها	16
فَصْلٌ في حفظ القلب من الوساوس والآفات والخواطر السيئة	18
فَصْلٌ في كفّ الجوارح عن المعاصي وفتنة الدنيا	22
فَصْلٌ في المداومة على الطهارة وإيثار الجوع على الشبع	25
فَصْلٌ في الإقبال على الله والتفرُّغ لعبادته	27
فَصْلٌ في وجوب إقامة الصلاة وأنّ روح العبادات الحضور فيها مع الله	29
فَصْلٌ في التحذير من ترك الجمعة والجماعات والحث على أداء الرواتب المشروعات.	31

فَصْلٌ في الحث علىٰ ملازمة الذِّكْر والتفكُّر	32
فَصْلٌ فيما به زجر النفس عن التكاسل عن الطاعات وعن الميل إلىٰ المخالفات	34
فَصْلٌ في أحوال النفس، ولزوم الصبر	36
فَصْلٌ في الاعتبار بالصابرين، وأنّ الرِّزق مقسومٌ	39
فَصْلٌ في الصبر علىٰ أذىٰ النَّاس والحذر من فتنتهم	44
فَصْلٌ في اطراح مراقبة الخلق	46
فَصْلٌ في الزجر عن طلب المكاشفات والكرامات	48
فَصْلٌ في طلب الرزق والسعي إليه	50
فَصْلٌ في صُحبة الأخيار وأدب المريد مع شيخه وأوصاف الشيخ الكامل	52
تتمة لآداب المريد مع شيخه	57
خاتمة في أوصاف المريد الصادق وما يجب عليه	59
الفهرس	65

عنوان التوفيق في آداب الطريق

شرح قصيدة شيخ الشيوخ
أبي مدين شعيب قدس اللّه سره
ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا

لسيدي تاج الدين
ابن عطاءِ اللّه السكندري

وعليها
تخميس
للشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي

ترجمة
سيدي أبي مدين شعيب التلمساني رضي الله عنه

عَلمُ أهل التصوف وقطب من الأقطاب الربانية، عُرف باسم سلطان الوارثين، وشيخ الشيوخ، وإمام الصديقين، إنه الشيخ الورع، العارف الزاهد، سيدي "أبو مدين الغوث شعيب بن الحسن الأندلسي الفاسي البجائي".

ولد بقطنيانة من أعمال إشبيلية بالأندلس حوالي سنة 509هـ، ثم خرج منها صبيا يتيما شديد العوز، ولكنه خرج ينشد ضالة لم يُدرك كُنهها ولا سرها إلا بعد سنوات، فنزل مدينة طنجة، ثم سبتة، ومراكش، وبعدها فاس، درس وتعلم هناك، ثم توجه إلى المشرق، ثم استقر ببجاية، وفي كل مكان حل به كان له أثر عظيم.

كان يرعى الغنم حينما يكون بالصحراء، وكان يخدم الصيادين وعلى ظهر المراكب حينما يكون بالساحل، ومع مرور الوقت أحس بأن هذه الحرف تمنعه عن أمر يرغب فيه

وهو التقرب إلىٰ الله عز وجل والاشتغال بعبادته، فقرر الفرار من الخَلق إلىٰ خالق الخَلق، وتحقق ذلك بطلب العِلم وصُحبة شيوخه، إلىٰ التدرج في مقامات التصوف، وكان يقول: "لا يصلح سماع هذا العلم إلا لمن حصلت له أربعة: الزهد، والعلم، والتوكل، واليقين".[1]

توجه إلىٰ مدينة فاس، مربىٰ العلم والعلماء، وكان أول مجلس علم يحضره هو مجلس سيدي حرزهم، "...الذي كان أول من فتق فنون المعرفة في قلب أبي مدين، وهو أول من هدىٰ أبا مدين سبيل العلم".

يقول الإمام عبد الحليم محمود في كتابه «أبي مدين الغوث»: "لقد تثقف سيدي أبي مدين كأحسن ما يكون المثقف، تثقف من مصادر أصلية: القرآن الكريم، والسنن، والإحياء، والرعاية، والرسالة القشيرية، وكان يصاحب في دراسته القمم:

---

1 – أنس الفقير، لابن قنفذ، تحقيق: أبو سهل ونجاح صيام، ط2002/1- دار المقطم، القاهرة، ص:53.

السنة النبوية، الحارث بن أسد المحاسبي، وحجة الإسلام، والإمام القشيري... وقد درس الفقه أيضا، وله فيه فتاوي نفيسة، ودرس التفسير، وامتزج قلبه بنور القرآن، وكان عابدا، فاجتمع له العلم والعبادة...، فكان الشخصية الإسلامية المتكاملة، فلقد كان متفننا في علوم الإسلام المختلفة، نقليا وعقليا....". (1)

وكان ينهج نهج الصحابة في فهم القرآن ومعرفة أسراره، يقول: "كنت إذا سمعت تفسير آية من كتاب الله تعالىٰ، ومعه حديث واحد من أحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام، قنعت بهما، وانصرفت إلىٰ خارج فاس، لموضع خال من الناس، اتخذته مأوىٰ للعمل بما يفتح الله علي من الآية والحديث، ثم أعود إلىٰ فاس، فآخذ آية وحديثا وأخرج إلىٰ خلوتي". (2)

أخذ التصوف عن الشيخ أبىٰ يعزىٰ، والشيخ أبي علي الدقاق،

---

1 - أبو مدين الغوث، للدكتور عبد الحليم محمود ص 50 - 52.

2 - أنس الفقير، ص: 48.

والشيخ عبد القادر الجيلاني الذي لقيه بالديار المقدسة، وأخذ عنه، وألبسه خرقة الصوفية.

يقول ابن عربي: "شيخنا أبو مدين من الثمانية عشر الظاهرين بأمر الله، عن أمر الله، لا يرون سوى الله في الأكوان، وهم أهل علانية وجهر، مُثْبِتُونَ للأسباب".(1)

وكان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه مشغولا بالتربية، والإفادة، والتعليم، والعبادة، والإقبال على الله تعالى في الظاهر والباطن".(2)

ومن أقواله النفيسة رحمه الله، قوله:

"حُسن الخُلق معاشرة كل شخص بما يؤنسه ولا يوحشه: مع العلماء بحسن الاستماع والافتقار، ومع أهل المعرفة بالسكون والانتظار، ومع أهل المقامات بالتوحيد والانكسار".

---

1 - الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، ط2008/1، دارالكتب العلمية-لبنان، ص: 47/2.

2 - أنس الفقير ص51.

"أضر الأشياء: صحبة عالم غافل، أو صوفي جاهل، أو واعظ مداهن".

"الحضور مع الله جنة، والغَيْبَةُ عنه نار، والقرب منه لذّة، والبعد عنه حسرة وموت، والأنس به حياة".

"الشيخ من هذبك بأخلاقه، وأدبك بأطرافه، وأنار باطنك بإشرافه".(1)

ومن نفائس شعره:

اللهُ قُلْ وَذَرِ الوُجُودَ وَمَا حَوَىٰ ... إِنْ كُنْتَ مُرْتَادًا بِصِدْقِ مُرَادِ

ومن مؤلفات سيدي أبي مدين:

كتاب «أنس الوحيد ونزهة المريد»، وكتاب: «مفاتيح الغيب لإزالة الريب وستر العيب»".

توفي رحمة الله عليه سنة 594هـ، بتلمسان، وكان آخر كلامه: الله الحي، ثم فاضت روحه".(2)

---

1 - الكواكب الدرية، ص: 2، ص: 48-49.

2 - طبقات الأولياء، ابن الملقن، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، =

ترجمة الشارح
سيدي ابن عطاء الله السكندري

هو: تاج الدين ابن عطاء الله أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الكريم الجذامي الأسكندراني، الإمام المتكلم الشاذلي المالكي، صحب في التصوف الشيخ أبا العباس المرسي، وكان أعجوبة زمانه.

ولد بالأسكندرية سنة 658 هـ، وتربىٰ في بيت علم وفقه، وبدأ حياته طالبًا للعلم، فبرع في الفقه والأدب والنحو والعلوم العقلية، مما جعل الإمام السيوطي يقول عنه: كان جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث ونحو وأصول وفقه علىٰ مذهب مالك.

وسلك طريق التصوف علىٰ يد شيخه سيدي أبي العباس المرسي عن سيدي أبي الحسن الشاذلي.

وانتفع به خلق كثير سلكوا طريقه، ورزقه الله البركة في

=

ط2/2006، دار الكتب العلمية، لبنان. ص:297.

كلامه ونفسه.

قَالَ الحافظ الذهبي: كَانَت لَهُ خلال عَجِيبَة وَوَقْع في النُّفُوس ومشاركة فِي الْفَضَائِل، وَرَأَيْت الشَّيْخ تَاج الدَّين الفارقي لما رَجَعَ من مصر مُعظما لوعظه وإشارته وَكَانَ يتَكَلَّم بالجامع الْأَزْهَر يمزج كَلَام الْقَوْم بآثار عَن السلف وفنون من الْعلم فَكثر أَتْبَاعه وَكَانَ عَلَيْهِ سيماء الْخَيْر.

تصانيفه:

1- الحكم العطائية .

2- التنوير في إسقاط التدبير.

3 - لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس والشيخ أبي الحسن.

4 - المرقى إلى القدس الأبقى.

5- التحفة في التصوف.

6 - الله القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد.

7 – عنوان التوفيق في أدب الطريق.

8 - مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح.

9 - هتك الأستار في علم الأسرار.

10 - بهجة النفوس.

11- الطريقة الجادة في نيل السعادة.

12- تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس[1]

وتوفي رضي الله عنه في 16 جمادىٰ الآخرة سنة 709هـ. ودفن بسفح جبل المقطم بزاويته التي كان يتعبد فيها، ومقامه يُزَارُ وَيُتَبَرَّكُ بِهِ ، فاللّٰهُمَّ إنا نتوسل به وبالصالحين فارض عنا واغفر لنا.

1 - انظر: حسن المحاضرة للحافظ السيوطي 542/1، وطبقات الشافعية الكبرىٰ لتاج الدين السبكي 23/9.

متن القصيدة

يَا طَالِبًا مِنْ لَذَاذَاتِ الدُّنَـا وَطَرَا
إِذَا أَرَدْتَ جَمِيـعَ الخَيْرِ فِيكَ يُرَىٰ
المُسْتَشَارُ أَمِينٌ فَاسْمَعِ الخَبَرَا
(مَا لَذَّةُ العَيْشِ إِلاَّ صُحْبَةُ الْفُقَرَا
هُمُ السَّلاَطِينُ وَالسَّادَاتُ وَالأُمَرَا)
قَوْمٌ رَضُوا بِيَسِيرٍ مِنْ مَلاَبِسِهِمْ
وَالْقُوتِ لاَ تَخْطُرِ الدُّنْيَا بِهَاجِسِهِمْ
صُدُورُهُمْ خَالِيَاتٌ مِنْ وَسَاوِسِهِمْ
(فَاصْحَبْهُمُو وَتَأَدَّبْ فِي مَجَالِسِهِمْ
وَخَلِّ حَظَّكَ مَهْمَا قَدَّمُوكَ وَرَا)
اسْلُكْ طَرِيقَهُمُو إِنْ كُنْتَ تَابِعَهُمْ
وَاتْرُكْ دَعَاوِيكَ وَاحْذَرْ أَنْ تُرَاجِعَهُمْ
فِيمَا يُرِيدُونَهُ وَاقْصِدْ مَنَافِعَهُمْ
(وَاسْتَغْنِمِ الوَقْتَ وَاحْضَرْ دَائِمًا مَعَهُمْ

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الرِّضَا يَخْتَصُّ مَنْ حَضَرَا)

كُنْ رَاضِيًا بِهِمُو تَسْمُو بِهِمْ وَتَصِلْ

إِنْ أَثْبَتُوكَ أَقِمْ أَوْ إِنْ مَحَوْكَ فَزُلْ

وَإِنْ أَجَاعُوكَ جُعْ وَإِنْ أَطْعَمُوكَ فَكُلْ

(وَلاَزِمِ الصَّمْتَ إِلاَّ إِنْ سُئِلْتَ فَقُلْ

لاَ عِلْمَ عِنْدِي وَكُنْ بِالجَهْلِ مَسْتَتِرًا)

وَلاَ تَكُنْ لِعُيوبِ النَّاسِ مُنْتَقِدَا

وَإِنْ يَكُنْ ظَاهِرًا بَيْنَ الوُجُودِ بُدًّا

وَانْظُرْ بِعَيْنِ كَمَالٍ لاَ تُعِبْ أَحَدَا

(وَلاَ تَرَ الْعَيْبَ إِلاَّ فِيكَ مُعْتَقِدَا

عَيْبًا بَدَا بَيِّنًا لَكِنَّهُ اسْتَتَرَا)

تَنَلْ بذَلِكَ مَا تَرْجُوهُ مِنْ أَدَبِ

وَالنَّفْسُ ذَلِّلْ لَهُمْ ذُلاًّ بِلاَ رَيْبِ

بَلْ كُلُّ ذَلِكَ ذُلٌّ نَابَ عَنْ أَدَبِ

(وَحُطَّ رَأْسَكَ وَاسْتَغْفِرْ بِلاَ سَبَبِ

وَقُمْ عَلَىٰ قَدَمِ الإِنْصَافِ مُعْتَذِرَا)

إِنْ شِئْتَ مِنْهُمْ بَرِيقًا لِلطَّرِيقِ تَشُمْ

عَنْ كُلِّ مَا يَكْرَهُوهُ مِنْ فِعَالِكَ ذُمْ

وَالنَّفْسَ مِنْكَ عَلَىٰ حُسْنِ الفِعَالِ أَدِمْ

(وَإِنْ بَدَا مِنْكَ عَيْبٌ فَاعْتَرِفْ وَأَقِمْ

وَجْهَ اعْتِذَارِكَ عَمَّا فِيكَ مِنْكَ جَرَىٰ)

لَهُمْ تَمَلَّقْ وَقُلْ دَاوُوا بِصُلْحِكُمُو

بِمَرْهَمِ العَفْوِ مِنْكُمْ دَاءَ جُرْحِكُمُو

أَنَا الْمُسِيءُ هَبُوا لِي مَحْضَ نُصْحِكُمُو

(وَقُلْ عُبَيْدُكُمُو أَوْلَىٰ بِصَفْحِكُمُو

فَسَامِحُوا وَخُذُوا بِالرِّفْقِ يَا فُقَرَا)

لاَ تَخْشَ مِنْهُمْ إِذَا أَذْنَبْتَ هِمَّتَهُمْ

أَسْنَىٰ وَأَعْظَمُ أَنْ تُرْدِيكَ عِشْرَتُهُمْ

لَيْسُوا جَبَابِرَةً تُؤْذِيكَ سَطْوَتُهُمْ

(هُمْ بِالتَّفَضُّلِ أَوْلَىٰ وَهْوَ شِيمَتُهُمْ

فَلاَ تَخَفْ دَرَكاً مِنْهُمْ وَلاَ ضَرَرًا)

إِذَا أَرَدْتَ بِهِمْ تَسْلُكْ طَرِيقَ هُدًىٰ

كُنْ فِي الَّذِي يَطْلُبُوهُ مِنْكَ مُجْتَهِدَا

فِي نُورِ يَوْمِكَ وَاحْذَرْ أَنْ تَقُولَ غَدَا

(وَبِالتَّغَنِّي عَلَىٰ الإِخْوَانِ جُدْ أَبَـدَا

حِسًّا وَمَعْنًىٰ وَغُضَّ الطَّرْفَ إِنْ عَثَرَا)

أَصْدِقْهُمُ الحَقَّ لاَ تَسْتَعْمِلِ الدَّنَسَا

لأَنَّهُمْ أَهْلُ صِدْقٍ سَـادَةٌ رُؤَسَا

وَاسْمَحْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِلَيْكَ أَسَا

(وَرَاقِبِ الشَّيْخَ فِي أَحْـوَالِهِ فَعَسَىٰ

يَرَىٰ عَلَيْكَ مِنِ اسْتِحْسَانِهِ أَثَرَا)

وَاسْــأَلْهُ دَعْوَتَهُ تَحْظَ بِدَعْوَتِهِ

تَنَـلْ بِذَلِـكَ مَا تَرْجُو بِبَرَكَتِهِ

وَحَسِّنِ الظَّنَّ وَاعْرَفْ حَقَّ حُرْمَتِهِ

(وَقَدِّمِ الجِدَّ وَانْهَضْ عِنْدَ خِدْمَتِهِ

عَسَاهُ يَرضَىٰ وَحَاذِرْ أَنْ تَكُنْ ضَجِرَا)

وَاحْفَظْ وَصِيَّتَهُ زِدْ مِنْ رِعَايَتِهِ

وَلَبِّهِ إِنْ دَعَا فَوْرًا لِسَاعَتِهِ

وَغُضَّ صَوْتَكَ بِالنَّجْوَىٰ لِطَاعَتِهِ

(فَفِي رِضَاهُ رِضَا البَارِي وَطَاعَتِهِ

يَرْضَىٰ عَلَيْكَ فَكُنْ مِنْ تَرْكِهَا حَذِرَا)

وَالْزَمْ بِمَنْ نَفْسُهُ نَفْسٌ مُسَايِسَةٌ

فِي ذَا الزَّمَانِ فَإِنَّ النَّفْسَ آيِسَةٌ

مِنْهُمْ وَحِرْفَتُهُمْ فِي النَّاسِ بَاخِسَةٌ

(وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ القَوْمِ دَارِسَةٌ

وَحَالُ مَنْ يَدَّعِيهَا اليَوْمَ كَيْفَ تَرَىٰ)

يَحِقُّ لِي إِنْ نَأَوْا عَنِّي لأَلْفِتَهُمْ

أُلَازِمُ الحُزْنَ مِمَّا بِي لِفُرْقَتِهِمْ

عَلَىٰ انْقِطَاعِيَ عَنْهُمْ بَعْدَ صُحْبَتِهِمْ

(مَتَىٰ أَرَاهُمْ وَأَنَّىٰ لِي بِرُؤْيَتِهِمْ

أَوْ تَسْمَعُ الأُذْنُ مِنِّي عَنْهُمُ خَبَرَا)

تَخَلُّفِـي مَانِعِـي مِنْ أَنْ أُلاَئِمَهُـمْ

مِنْهُمْ أَتَيْتُ فَلُمْنِي لَسْتُ لاَئِمَهُمْ

يَا رَبِّ هَبْ لِي صَلاَحًا كَيْ أُنَادِمَهُمْ

(وَمَنْ لِـي وَأَنَّىٰ لِمِثْلِي أَنْ يُزَاحِمَهُمْ

عَلَىٰ مَوَارِدٍ لمْ آلَفْ بِهَا كَدَرَا)

جَلَّتْ عَنِ الوَصْفِ أَنْ تُحْصَىٰ مَآثِرُهُمْ

عَلَىٰ البَوَاطِنِ قَدْ دَلَّتْ ظَوَاهِرُهُمْ

بِطَاعَةِ اللهِ فِي الدُّنْيَـا مَفَـاخِرُهُمْ

(أُحِبُّهُمْ وَأُدَارِيــهِمْ وَأُؤْثِرُهُمْ

بِمُهْجَتِي وَخُصُوصًا مِنْهُمُ نَفَرَا)

قَوْمٌ عَلَىٰ الخَلْقِ بِالطَّاعَاتِ قَدْ رُئِسُوا

مِنْهُمْ جَلِيسُهُمُ الآدَابَ يَقْتَبِسُ

وَمَنْ تَخَلَّـفَ عَنْهُـمْ حَظُّـهُ التَّعَسُ

(قَوْمٌ كِرَامُ السَّجَايَا حَيْثُمَا جَلَسُوا

يَبْقَى المَكَانُ عَلَى آثَارِهِمْ عَطِرَا)

فَهِمْ بِهِمْ لاَ تُفَارِقْهُمْ وَزِدْ شَغَفَا

وَإِنْ تَخَلَّفْتَ عَنْهُمْ فَانْتَحِبْ أَسَفَا

عِصَابَةٌ بِهِمْ يُكْسَى الفَتَى شَرَفَا

(يَهْدِي التَّصَوُّفُ مِنْ أَخْلاَقِهِمْ طَرَفَا

حُسْنُ التَّآلُفِ مِنْهُمْ رَاقَنِي نَظَرَا)

جَرَرْتُ ذَيْلَ افْتِخَارِي فِي الهَوَى بِهِمُو

لَمَّا رَضُونِي عُبَيْدًا فِي الْهَوَى لَهُمُو

وَحَقُّهُمْ فِي هَوَاهُمْ لَسْتُ أَنْسَهُمُو

(هُمْ أَهْلُ وُدِّي وَأَحْبَابِي الَّذِينَ هُمُو

مِمَّنْ يَجُرُّ ذُيولَ العِزِّ مُفْتَخِرَا)

قَطَّعْتُ فِي النَّظْمِ قَلْبِي فِي الهَوَى قِطَعَا

وَقَدْ تَوَسَّلْتُ لِلْمَوْلَى بِهِمْ طَمَعَا

أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي وَالمُسْلِمِينَ مَعَا

(لاَ زَالَ شَمْلِي بِهِمْ فِي اللهِ مُجْتَمِعَا

وَذَنْبُنَا فِيهِ مَغْفُورًا وَمُغْتَفَرَا)

يَا كُلَّ مَنْ ضَمَّهُ النَّادِي بِمَجْلِسِنَا

ادْعُ الإِلَهَ بِهِمْ يَمْحُو الذُّنُوبَ لَنَا

وَادْعُ لِمَنْ خَمَّسَ الأَصْلَ الذِي حَسُنَا

(ثُمَّ الصَّلاةُ عَلَى المُخْتَارِ سَيِّدِنَا

مُحَمَّدٍ خَيْرِ مَنْ أَوْفَى وَمَنْ نَذَرَا)

شرح القصيدة

قال الشيخ العارف بالله القدوة المحقق تاج العارفين، ولسان المتكلمين، إمام وقته، ووحيد عصره، تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندريُّ رضي الله عنه ونفعنا به، آمين.

الحمد لله المتفرد بالخلق والتدبير، الواحد في الحكم والتقدير، الملك الذي ليس له في مُلكه وزير، المالك الذي لا يخرج عن مُلكه صغيرٌ ولا كبيرٌ، المتقدس في كمال وصفه عن الشبيه والنظير، المنزَّه في كمال ذاته عن التمثيل والتصوير، العليم الذي لا يخفى عليه ما في الضمير، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1] العَالِم الذي أحاط عِلمه بمَبادِئ الأمور ونهاياتها، السميع الذي لا فضل في سمعه بين ظاهر الأصوات وخفاياها، الرَّزاق وهو المُنعم على الخليقة بإيصال أقواتها،

1 - سورة الملك: 14.

القيوم المتكفل بها في جميع حالاتها، الوهاب وهو الذي مَنَّ علىٰ النفوس بوجود حياتها، القدير وهو المعيد لها بعد وفاتها، الحسيب وهو المُجازي لها يوم قدومها عليه بحسناتها وسيئاتها، فسبحانه مِنْ إلٰهٍ مَنَّ علىٰ العباد بالجُودِ قبل الوُجود، وقام بهم بأرزاقهم علىٰ كِلْتَيْ حالاتهم من إقرار وجحود، ومَدَّ كل موجودٍ بوجودِ عطائِهِ، وحفظ وجود العالم بإمداد بقائه، وظهر بحكمته في أرضه وقدرته في سمائه.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبدٍ مفوِّضٍ لقضائه ومسلِّمٍ له في حُكمِهِ وإمضائِهِ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المفَضَّل علىٰ جميع أنبيائه، المخصوص بجزيل فضله وعطائه، الفاتح الخاتم وليس ذلك لسواه، الشافع لكل العباد حين يجمعهم الحق لِفصلِ قضائه، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه المستمسكين بولائه، وسلم تسليما كثيرًا .

اعلم يا أخي جعلك الله مِنْ أهل حُبِّه، وأتحفك بوجود قربه، وأذاقك من شراب أهل وُدِّهِ، وأَمَّنَكَ بدوام وَصْلتِهِ من إعراضه

وصَدِّهِ، ووَصَلَكَ بعباده الذين خَصَّهم بمراسلاته، وجَبَرَ كسرَ قلوبهم لما علموا أنه لا تدركه الأبصار لنور تجلياته، وفَتَحَ لهم رياض القرب فَهَبَّ منها على قلوبهم واردات نفحاته، أَشْهَدَهُم سابقَ تدبيرِهِ فيهم فسلمُوا إليه القياد وكشَفَ عن خفيِّ لطفه في منعه فتركوا المنازعة والعناد، فهم مستسلمون إليه، ومتوكلون عليه.

أما بعد، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُحْشَرُ الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ".(1)

فإذا علمت أيها الأخ الشقيق، فلا تخالل إلا من يُنْهِضُكَ حالُهُ، ويَدُلك على الله مقالُهُ، وذلك هو الفقير المتجرِّد عن السِّوَى، المقبل على المولى، فليست اللذة إلا مخاللته، ولا السعادة إلا خدمته ومصاحبته، فلذلك قال الشيخ العارف المتمكن

---

1 - أخرجه أحمد في مسنده 8048/2/ح 8048 ، والترمذي في جامعه 589/4/ح 2378 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ». ولفظة : "يحشر" لم أقف عليها.

أبو مدين رضي الله تعالىٰ عنه.

مَا لَذَّةُ العَيْشِ إِلاَّ صُحْبَةُ الْفُقَرَا

هُمُ السَّلاَطِينُ وَالسَّادَاتُ وَالأُمَرَا

أي ما لذة عَيشِ السالك في طريق مولاه إلا صحبة الفقراء، والفقراء جمع فقير، والفقير هو المتجرد عن العلائق، المعرض عن العوائق، لم يبق له قبلة ولا مقصد إلا الله تعالىٰ، وقد أعرض عن كل شيء سواه، وتحقق بحقيقة لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله، فمثل هذا مصاحبته تذيقك لذة الطريق، وتريق في جميع فؤادك من شراب القوم أهنىٰ رحيق، ويعرفك الطريق، ويقطع لك العتاب، ويزيل عن قلبك التعويق، وينهضك بهمَّتِهِ ويرفعك إلىٰ أعلىٰ الدرجات، ومن كان كذلك فهو السلطان علىٰ الحقيقة، والسيد علىٰ أهل الطريقة والأمير علىٰ أهل البصيرة.

فلا تخالف أيها السالك طريقه، واجتهد أيها السالك المُجِدُّ في تحصيل هذا الرفيق، واصحبه وتأدب في مجالسه، يزيل عنك ببركة صحبته كل تعويق. كما قال رضي الله تعالىٰ عنه :

فَاصْحَبْهُمُو وَتَأَدَّبْ فِي مَجَالِسِهِمْ

وَخَلِّ حَظَّكَ مَهْمَا قَدَّمُوكَ وَرَا

أي أصحب الفقراء، وتأدب معهم في مجالستهم، فإن الصحبة شبح، والأدب روحها، فإذا اجتمع لك بين الشبح والروح حُزتَ فائدة صحبته، وإلا كانت صحبتك ميتة، فأي فائدة ترجوها من الميت.

ومن أهم آداب الصحبة أن تخلف حظوظك وراءك، ولا تكن همتك مصروفة إلا لامتثال أوامرهم، فعند ذلك يُشْكَر مسعاك، فإذا تخلقت بذلك فبادر واستغنم الحضور، وأَخْلِص في ذلك ترفع درجتك وتعلو همتك والقصور، كما قال رضي الله عنه :

وَاسْتَغْنِمِ الوَقْتَ وَاحْضَرْ دَائِمًا مَعَهُمْ

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الرِّضَا يَخْتَصُّ مَنْ حَضَرَا

أي واستغنم وقت صحبة الفقراء واحضر دائما معهم بقلبك وقالبك تسري إليك زوائدهم، وتغمرك فوائدهم، وينصع

ظاهرك بالتأدب بآدابهم، ويشرق باطنك بالتحلي بأنوارهم، فإن من جالس جانس، فإن جلست مع المحزون حزنت، وإن جلست مع المسرور سُرِرت، وإن جلست مع الغافلين سَرَت إليك الغفلة، فإنهم القوم لا يشقى جليسهم، فكيف يشقى خادمهم ومحبهم وأنيسهم وما أحسن ما قيل :

لِي سَادَةٌ مِنْ عِزِّهِمْ أَقْدَامُهُمْ فَوْقَ الجِبَاهِ
إِنْ لَمْ أَكُنْ مِنْهُمْ فَلِي فِي حُبِّهِمْ عِزٌ وَجَاهُ[1]
وَجَاهُ[1]

واعلم أن هذا الرضا، وهذا المقام يخص من حضر معهم بالتأدب، وخرج عن نفسه، وتحلى بالذلة والانكسار، فاخرج عنك إذا حضرت بين أيديهم، وانطرح وانكسِر إذا حللت بناديهم، فعند ذلك تذوق لذة الحضور، واستعن على ذلك

---

1 - نسب هذان البيتان إلى سيدي ابن عطاء الله في ديوان: قصائد وأناشيد السادة الصوفية ص 247. وذكرهم السخاوي في الضوء اللامع 255/5 من غير نسبة لأحد .وفيه: "في ذكرهم" بدلا من قوله "في حبهم" .

بملازمة الصَّمت، تشرق لك أنوار الفرح، ويغمرك السرور كما قال رضي الله عنه :

وَلاَزِمِ الصَّمْتَ إِلاَّ إِنْ سُئِلْتَ فَقُلْ
لاَ عِلْمَ عِنْدِي وَكُنْ بِالجَهْلِ مَسْتَتِرًا

الصَّمت عند أهل الطريقة من لازمه ارتفع بنيانه، وتمَّ غِراسه، وهو نوعان: صمت باللسان وصمت بالجَنان، وكلاهما لا بدَّ منه في الطريق، فمن صمت قلبه ونطق لسانه نطق بالحكمة، ومن صمت لسانه وصمت قلبه تجلى له سره، وكلمه ربه.

وهذا غاية الصمت، وكلام الشيخ قابل لذلك، فالزم الصمت أيها السالك إلا إن سُئلت، فإن سُئلتَ فارجع إلى أصلِك ووصلك، وقل: لا علم عندي. واستتر بالجهل تشرق لك أنوار العلم اللدني، فإنك مهما اعترفت بجهلك ورجعت إلى أصلِك لاحت لك معرفة نفسك، فإذا عرفتها عرفت ربك، كما روي في الحديث: "مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ". وكل ذلك من فوائد

الصمت ولزوم آدابه، فاصمت وتأدب ولازم الباب تكن من أحبابه، وما أحسن ما قيل :

لاَ أَبْرَحُ البَابَ حَتَّىٰ تُصْلِحُوا عِوَجِي
وَتَقْبَلُونِي عَلَىٰ عَيْبِي وَنُقْصَانِي
فَإِنْ رَضِيتُمْ فَيَا عِزِّي وَيَـا شَرَفِي
وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَمَنْ أَرْجُو لِعِصْيَانِي

فَانْهَضْ أيها الأخ إلىٰ باب مولاك بهمَّة علية، وتحقق بعبوديتك تشرق عليك أنواره السنية، كما أشار إلىٰ ذلك الشيخ رضي الله عنه بقوله:

وَلاَ تَرَ الْعَيْبَ إِلاَّ فِيكَ مُعْتَقِدَا
عَيْبًا بَدَا بَيِّنًا لَكِنَّهُ اسْتَتَرَا

أي تحقق بأوصافك من فقرك وضعفك وعجزك وذلتك، فإذا تحققت بأوصافك وشَهِدْتَ لنفسك عيوبا لكنها مستترة، فعند ذلك تحظىٰ بظهور أوصاف مولاك فيك، كما قيل: سُبحانَ مَن سَترَ سِرَّ الخصوصية في ظهور البشرية وظهر بعظمة الربوبية في

إظهار العُبُودية، وافهم من هنا سر معنىٰ قوله تعالىٰ (سُبْحَانَ الذِي أَسْرَىٰ بِعَبدِهِ)[1] ولم يَقل برسوله ولا بنبيِّهِ، أشار إلىٰ ذلك المعنىٰ الرفيع الذي لا ينال إلا من العبودية لذلك قيل :

لاَ تَدْعُنِي إِلاَّ بِيَا عَبْدًا هَيَا　　فَإِنَّـهُ أَشْرَفُ أَسْمَـائِيَ

فانكسِر أيها الأخ وانطرِح بالطريق ولا ترَ لك حالا ولا مقالا، يَزُلْ عنك كل تعويق، واستغفر من كل ما يخطر بقلبك في عبوديتك، وقمْ علىٰ قدمِ الاعتراف، وأَنْصِفْ من نفسك تبلغ أعلىٰ درجات المنازل وتفنىٰ بشريتك، كما قال رضي الله عنه :

وَحُطَّ رَأْسَكَ وَاسْتَغْفِرْ بِلاَ سَبَبِ

وَقُمْ عَلَىٰ قَدَمِ الإِنْصَافِ مُعْتَذِرَا

أي تواضع وانكسر، وحُطَّ أشرف ما عندك وهو رأسك في أخفض ما يكون وهي الأرض؛ لتحوز مقام القرب، كما ورد في الحديث: "أَقْرَبُ مَا يَكونُ العَبدُ إِلىٰ اللهِ تعَالىٰ وَهُوَ

1 - سورة الإسراء: آية 1.

سَاجِدٌ".[1] لأن قرب العبد بتواضعه وانكساره وخروجه عن أوصاف بشريته.

واشهد نفسك دائما مُذنبا، ولو لم يظهر عليك سبب الذنب، فإن العبد لا يخلو من تقصير، وقِفْ علىٰ قَدَمِ الإنصاف من ذنوبك خجلا من سيئاتك وعيوبك، فإن من عَامَلَ المخلوق هذه المعاملة أحبَّهُ، ولم يشهد له ذنبًا وكانت مساوئه عنده محاسن، فكيف إذا عامل بهذه المعاملة صاحبه الحقيقي الذي إذا تحققه ليس له صاحب سواه، كما ورد في الحديث: "اللّٰهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، والخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ وَالمَالِ وَالوَلَدِ".[2]

فتأهب أيها الأخ لهذه المعاملة مع إخوانك الفقراء، لتصير لك معراجًا تتوصل بها إلىٰ معاملة ربِّ السماء، وتكون مقبولا عند الخلق والخالق، وتصفو لك المعاملة، وتشرق عليك أنوار

---

1 - أخرجه مسلم في صحيحه 215/1 بنحوه.

2 - أخرجه مسلم في صحيحه 2/978/ح1342.

الحقائق.

قال رضي الله عنه:

وَإِنْ بَدَا مِنْكَ عَيْبٌ فَاعْتَرِفْ وَأَقِمْ
وَجْهَ اعْتِذَارِكَ عَمَّا فِيكَ مِنْكَ جَرَىٰ
وَقُلْ عُبَيْدِكُمُو أَوْلَىٰ بِصَفْحِكُمُو
فَسَامِحُوا وَخُذُوا بِالرِّفْقِ يَا فُقَرَا
هُمْ بِالتَّفَضُّلِ أَوْلَىٰ وَهْوَ شِيمَتُهُمْ
فَلاَ تَخَفْ دَرَكاً مِنْهُمْ وَلاَ ضَرَرًا

أي لِيكن شأنك دائما التواضع والانكسار وطلب المعذرة والاستغفار، سواء وقع منك ذنب أو لم يقع، وإن بدا منك عيبٌ أو ذنب فاعترف واستغفر، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وليس الشأن أن لا تذنب، إنما الشأن أن لا تصِرَّ علىٰ الذنب كما ورد "أَنِينُ المُذْنِبِينَ عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنْ زَجَلِ

المُسَبِّحِينَ عَجَبًا وافْتِخَارًا".[1]

ولذلك قلتُ في الحِكَمْ: ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وقضىٰ عليك بالذنب وكان سببًا للوصول.

رُبَّ معصِيةٍ أورثتْ ذلا وانكِسَارًا خير من طاعةٍ أورثت عِزًّا واستكبَارًا. ومع اعترافك واستغفارك أقم وجه اعتذارك عما جرىٰ منك فيكون ذلك مُمْحِيًا للذنب وأدخل في القبول.

وذُلَّ وتواضَع وانكسِر وقل: عبيدكم أولىٰ بصفحِكُم. لأن العبد ليس له إلا باب مولاه وما أحسن ما قيل:

أَلْقَيْتُ فِي بَابِكُمْ عَنَانِي وَلَمْ أُبَالِ بِمَا عَنَانِي
فَزَالَ قَبْضِي وَزَادَ بَسْطِي وَانْقَلَبَ الخَوْفُ بِالأَمَانِي

فسامحوا عُبَيْدَكم يا فقرا، وخذوا بالرفق، وعاملوني به، فإني

1 - ذكره العجلوني في كشف الخفا 261/1. وأخرج البيهقي في شعب الإيمان 452/5/ح 7251 من طريق محمد بن عبد الله الرازي سمعت أبا علي صاحب عبيد الله الحبلي يقول: أوحىٰ الله عز و جل إلىٰ داود عليه السلام أنين المذنبين أحب إليَّ من صراخ الصديقين.

عبد فقير لا يصلحني إلا المعاملة بالرفق والفضل، ولا اعتماد لي إلا على الفضل، لا بحولي و لا بقوتي، مذهبي العجز والسلام.

ثم قال رضي الله تعالى عنه: إنهم أولى بهذا الشيء، وهو شِيمتهم، ولم يزالوا متفضلين، وهذه معاملتهم مع أصحابهم وهي سجيتهم، وكيف لا تكون سجيتهم وهم متخلقون بأخلاق مولاهم، كما ورد "تَخَلَّقُوا بِأَخْلاَقِ اللّٰهِ".

فلا تخف منهم ضررا أيها السالك المصاحب لهم، وتمسَّكْ بِأَذْيَالِهِم "فَإِنَّهُمُ القَوْمُ لاَ يَشْقَىٰ جَلِيسُهُمْ"[1]، فإذا عرفت ذلك أيها السالك فتخلق بأخلاقهم الكريمة.

وجُدْ بالتغني على الإخوان، وغض الطرف عن عثرتهم تكن آخذا من أوصافهم أحسن هيئة.

1 - صحيح مسلم: ج4/ص2069 ح2689.

قال رضي الله عنه :

وَبِالتَّغَنِّي عَلَىٰ الإِخْوَانِ جُدْ أَبَـدَا
حِسًّا وَمَعْنًىٰ وَغُضَّ الطَّرْفَ إِنْ عَثَرَا

أي وتكرَّم علىٰ إخوانك، وجُد عليهم أبدا، أما في الحِسِّ فَبِبَذل الأموال، وأما في المَعنىٰ فبصرف همَّة الأحوال، ولا تبخل عليهم بشيء يمكنك إيصاله إليهم، فإن السماحة لبُّ الطريق، ومن تخلق بها فقد زالَ عن قلبه كل تعويق.

قال الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: إخواني، ما وصَلتُ إلىٰ الله تعالىٰ بقيام ليل، ولا صيام نهار ولا دراسة علم، ولكن وصلت إلىٰ الله بالكرم والتواضع وسلامة الصَّدر.

فدَلَّ كلام الشيخ رضي الله عنه أن الكرم هو الأساس، وأن التواضع يتم للسالك به الغراس، فإذا تمَّ له هذان سلم صدره من العلائق، وزال عن طريقه كل عائق، ولذلك ورد في الحديث "إنَّ في الجنة لَغُرَفًا، يُرَىٰ ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وبَاطِنُها مِنْ ظَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَىٰ لِمَنْ أَلاَنَ الكَلاَمَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ

وَتَابَعَ القِيَامَ وَصَلَّىٰ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ". [1]

فتأمل هذا الحديث يا أخي حيث بدأ صلىٰ الله عليه وسلم بالإلانة الكلام وهو إشارة إلىٰ التواضع ثم ثَنَّىٰ بإطعام الطعام، وهو إشارة إلىٰ الكرم، ثم أتىٰ بعد ذلك بالصَّلاة والصِّيام كما أشار إليه الشيخ عبد القادر، فانهض أخي إلىٰ هذه المآثِرِ وبادر، واجمع معها حُسْنَ مكارم الأخلاق وغُضَّ الطرف عن مساوئ الإخوان إن وقفت منهم علىٰ عثرة ولا تشهد إلا محاسنهم، كما قال رضي الله عنه في حكمه الفتوحية: رؤية محاسن العبيد، والغيبة عن مساوئهم، ذلك شيء من كمال التوحيد. كما قيل :

إِذَا مَا رَأَيْتَ اللهَ فِي الكُلِّ فَاعِلاً ... رَأَيْتَ جَمِيعَ الكَائِنَاتِ مِلاَحَا

فإذا تخلقت أيها الأخ بهذه الخصال الشريفة، فقد تأَهَّلْتَ للإقبال علىٰ الشيخ، فانهض إلىٰ عتبة بابه، وراقِبْهُ بِهِمَّةٍ مَنِيفَةٍ، كما أشار إلىٰ ذلك الشيخ رضي الله عنه بقوله:

---

1 - أخرجه أحمد في مسنده 37/539/ح22905.

وَرَاقِبِ الشَّيْخَ فِي أَحْـوَالِهِ فَعَسَىٰ
يَرَىٰ عَلَيْكَ مِنِ اسْتِحْسَانِهِ أَثَرَا

أي إذا تخلقتَ بما تقدم من الآداب ووصلت بافتقارك وانكسارك إلىٰ الشيخ، وتمسكت بأثر تلك الأعتاب فراقب أحواله، واجتهد في حصول مراضيه، وانكسِر واخضع له في كل حين، فإنه الترياق والشفاء، وإن قلوب المشايخ ترياق الطريق، ومن سَعِدَ بذلك تمَّ له المطلوب وتخلص من كل تعويق.

واجتهد أيها الأخ في مشاهدة هذا المعنىٰ فعسىٰ يرىٰ عليك من استحسانه لحالك أثرا.

قال بعضهم: من أشد الحرمان أن تجتمع مع أولياء الله تعالىٰ ولا تُرزق القبول منهم، وما ذلك إلا لسوء الأدب منك، وإلا فلا بُخْلَ من جانبهم ولا نقصَ مِنْ جِهَتِهِم. كما قلتُ في الحكم: "مَا الشَّأْنُ وُجُودُ الطَّلَبِ، إِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ تُورثَ حُسْنَ الأَدَبِ".

زار بعض السلاطين ضريح أبي يزيد رضي الله عنه وقال: هل

هنا أحد ممن اجتمع بأبي يزيد ؟ فأشير إلىٰ شيخ كبير في السِّن كان حاضرًا هناك، فقال له: هل سمعت شيئا من كلامه ؟ قال: نعم. قال: من زارني لا تحرقه النار. فاستغرب السلطان ذلك الكلام. فقال: كيف يقول أبو يزيد ذلك، وأبو جهل رأىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم، وهو تحرقه النار.

فقال ذلك الشيخ للسلطان: أبو جهل لم ير النبي صلىٰ الله عليه وسلم، إنما رأىٰ يتيم أبي طالب، ولو رآه صلىٰ الله عليه وسلم لم تحرقه النار. ففهم السلطان كلامه وأعجبه هذا الجواب منه.

أي إنه لم يره بالتعظيم والإكرام واعتقاد أنه رسول الله، ولو رآه بهذا المعنىٰ لم تحرقه النار، ولكنه رآه باحتقار واعتقاد أنه يتيم أبي طالب، فلم تنفعه تلك الرؤية.

وأنت يا أخي، لو اجتمعت بقطبِ الوقت ولم تتأدب لم تنفعك تلك الرؤية، بل كانت مضرَّتُهَا عليك أكثر من منفعتها، فتأدب بين يدي الشيخ، واجتهد أن تسلك أحسن المسالك، وخُذْ ما

عرفت بجد واجتهاد، وانهض في خدمته، وأخلص في ذلك لتسود مع من ساد، كما قال :

وَقَدِّمِ الجِّدَّ وَانْهَضْ عِنْدَ خِدْمَتِهِ
عَسَاهُ يَرضَىٰ وَحَاذِرْ أَنْ تَكُنْ ضَجِرَا

فَفِي رِضَاهُ رِضَا البَارِي وَطَاعَتِهِ
يَرْضَىٰ عَلَيْكَ فَكُنْ مِنْ تَرْكِهَا حَذِرَا

أي انهض في خدمة الشيخ بالجد فعساك تحوز رضاه فتسُود مع من ساد، واحذر أن تضجر، ففي الضَّجر الفساد، ولازم أعتاب بابه في الصباح والمساء لتحوز منه الوداد. وما أحسن ما قيل:

اصْبِرْ عَلَىٰ مَضَضِ الإِدْلاَجِ فِي السَّحَرِ
وَلِلنُّذُورِ عَلَىٰ الطَّاعَاتِ بِالبَكَرِ

وَقُلْ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ يُؤَمِّلُهُ
مَا اسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلاَّ فَازَ بِالظَّفَرِ

فإن ظفرت أيها السالك برضاه رَضِيَ الله تعالىٰ عنك ونِلْتَ فوق ما تمنيت، فاستقم في رضىٰ شيخك وطاعته تظفر بطاعة

مولاك ورضاه، وتفوز بجزيل كرامته.

وعُضَّ بالنواجذ علىٰ خِدمة الشيخ إن ظفرت بالوصول إليه، واعلم أن السعادة قد شملتك من جميع جهاتك، إذا عرفك الله تعالىٰ به، وأطلعك تعالىٰ عليه فإن الظفر به لا سيما في هذه الأيام أعز من الكبريت الأحمر.

وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ القَوْمِ دَارِسَةٌ
وَحَالُ مَنْ يَدَّعِيهَا اليَوْمَ كَيْفَ تَرَىٰ

لكن إذا ساعدتك العناية ظفرتَ وشمَمْتَ من نفحة طيبه ما يفوق المِسك الأذفر، ولذلك قال رضي الله تعالىٰ عنه وعنا به، آمين:

وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ القَوْمِ دَارِسَةٌ
وَحَالُ مَنْ يَدَّعِيهَا اليَوْمَ كَيْفَ تَرَىٰ

مَتَىٰ أَرَاهُمْ وَأَنَّىٰ لِي بِرُؤْيَتِهِمْ
أَوْ تَسْمَعُ الأُذْنُ مِنِّي عَنْهُمُ خَبَرَا

وَمَنْ لِـي وَأَنَّىٰ لِمِثْلِي أَنْ يُزَاحِمَهُمْ

عَلَىٰ مَوَارِدٍ لمْ آلَفْ بِهَا كَدَرَا

أُحِبُّهُمْ وَأُدَارِيــهِمْ وَأُؤْثِرُهُمْ

بِمُهْجَتِي وَخُصُوصًا مِنْهُمُ نَفَرَا

شرع الشيخ رضي الله تعالىٰ عنه يشوق السالك إلىٰ طريق أهله، ويخبره أن طريقهم دارسة، وحال من يدعيها اليوم كما ترىٰ في الفترة حتىٰ كادت الهمم أن تكون من الطلب آيسة، وهكذا شأن طريق القوم لعزتها، كأنها في عصر مفقودة، ولا يظفر بها إلا الفرد بعد الفرد، وهذه سنة معهودة، وذلك أن الجوهر النفيس لا يزال عزيز الوجود، يكاد لعزته يُحكَم بأنه ليس بموجود.

والطريق أهلها مخفية في العالم خفاء ليلة القدر في شهر رمضان، وخفاء ساعة الجمعة في يومها حتىٰ يجتهد الطالب في طلبه بقدر الإمكان، فإن من جدَّ وَجَدَ، ومن قرع الباب ولَجَّ وَلَجَ.

قلتُ: بعد أن ذكر لا بد من الشيخ في الطريق علىٰ سبيل

السؤال والجواب كيف تأمرنا بذلك، وقد قيل إن وجود الشيخ كالكبريت الأحمر وكالعنقاء، مَنْ ذَا الذي بوجودها يظفر، كيف تأمرني بتحصيلِ مَن هذا شأنُهُ.

فقال: لو صدقتَ في الطلب وكنتَ في طلبه كالطفل والظمآن لا يَقَرُّ لهم قرارٌ ولا تسكن لوعتهم حتىٰ يظفروا بمقصودهم.

فأشار الشيخ رضي الله عنه إلىٰ أن الشيخ موجود، وكيف لا يكون موجودا وعمارة العالم بأمثاله، فإن العالَمَ شخصٌ والأولياء روحه، فما دام العالَم موجودًا لا بدَّ من وجودهم، لكن لِشِدَّة خفائهم وعدم ظهورهم حكم بفقدانهم .

فاجتهد أيها الأخ، واصدق في الطلب تجدِ المطلوب، واستعِن علىٰ ذلك الطلب بمَدَدِ علام الغيوب، فإن الظفر لا يحصل إلا بمجرد فضله. وإذا أوصلك إلىٰ الشيخ فقد أوصلك إليه كما قلت في الحكم: سبحان من لم يجعل الدليل علىٰ أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه.

ثم إن الشيخ رضي الله عنه، كما ذكر عزة الطريق، وفقدان أهلها شرع يتأسف على الاجتماع بهم ويتمناه، ويستبعد من نفسه حصول ذلك، والتشرف بلقائه؛ تواضعا منه وانكسارًا وهضمًا لنفسه واحتقارًا.

وهذا شأن العارف لنفسه بنفسه، الممتلئ من معرفة ربه، المتحلي بواردات قدسه، لأنه لا يرى لنفسه حالا ولا مقالا، بل يرى نفسه أقل من كل شيء، وهذا هو النظر التام، كما قيل:

إِذَا زَادَ عِلْمُ المَرْءِ زَادَ تَوَاضُعًا
وَإِنْ زَادَ جَهْلُ المرْءِ زَادَ تَرَفُّعَا
وفِي الغُصْنِ مِنْ حَمْلِ الثِّمَارِ مِثَالُهُ
فَإِنْ يَعْرِ عَنْ حَمْلِ الثِّمَارِ تَمَنَّعَا

فانظر إلى الشيخ أبي مدين ورفعته في الطريق مع أنه وصل من تربيته اثنا عشر ألف مريد، وانظر إلى هذا التنزل منه والتدلي بأغصان شجرة معرفته إلى أرض الخضوع والانكسار حتى أنه لم ير نفسه أهلا للاجتماع بأهل هذه الطريقة، ويزيده هذا

الانخفاض من الارتفاع، لأن الشجرة لا يزيدها انخفاضها في عروقها إلا ارتفاعا في رأسها.

فتواضع في الطريق، وخذ هذا الأصل العظيم من هذا العارف المتمكن يزل عنك كل تعويق.

ثم قال رضي الله عنه بعد ذلك:

أُحِبُّهُمْ وَأُدَارِيــهِمْ وَأُؤْثِرُهُمْ   بِمُهْجَتِي وَخُصُوصًا مِنْهُمُ نَفَرَا

أي وإن لم أكن أنا منهم فإني أحبهم، ومن أحب قوما فهو منهم، كما ورد في الحديث "المَرءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ".[1] كما قيل:

أُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ   لَعَلِّي أَنْ أَنَالَ بِهِمْ شَفَاعَهْ

وَأَكْرَهُ مَنْ بِضَاعَتُهُ المَعَاصِي   وَإِنْ كُنَّا سَوَاءً فِي البِضَاعَهْ

وهذه خصال القوم وصفاتهم، ولذلك ارتفعت رتبهم، وجزلت عطيتهم كما وصفهم رضي الله عنه بقوله:

---

1 - أخرجه مسلم في صحيحه 2034/4/ح2640 من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

قَوْمٌ كِرَامُ السَّجَايَا حَيْثُمَا جَلَسُوا

يَبْقَىٰ المَكَانُ عَلَىٰ آثَارِهِمْ عَطِرَا

يَهْدِي التَّصَوُّفُ مِنْ أَخْلاَقِهِمْ طَرَفَا

حُسْنُ التَّآلُفِ مِنْهُمْ رَاقَنِي نَظَرَا

هُمْ أَهْلُ وُدِّي وَأَحْبَابِي الذِينَ هُمُو

مِمَّنْ يَجُرُّ ذُيولَ العِزِّ مُفْتَخِرَا

لاَ زَالَ شَمْلِي بِهِمْ فِي اللهِ مُجْتَمِعَا

وَذَنْبُنَا فِيهِ مَغْفُورًا وَمُغْتَفَرَا

ثُمَّ الصَّلاةُ عَلَىٰ المُخْتَارِ سَيِّدِنَا

مُحَمَّدٍ خَيْرِ مَنْ أَوْفَىٰ وَمَنْ نَذَرَا

أي قوم سجاياهم كريمة وهمتهم عظيمة، حيثما جلسوا تبقىٰ آثار نفحات عطرهم في المكان ظاهرة، وأينما توجهوا سطعت شمس معارفهم فتشرق القلوب، وتصلح بهم الدنيا والآخرة.

يهدي التصوف للسالك المشتاق من أخلاقهم طرقا مجيدة تدل علىٰ الطريق ويسير في سلوكه سيرة حميدة، فلذلك جمعوا

أحسن تأليف، حتىٰ راق كل ناظر، وجَدُّوا في أكمل معنىٰ لطيف حتىٰ اكتحلت بكحل إثمدهم أنوار البصائر.

وكذلك قال الشيخ رضي الله عنه بعد ذلك:

هم أهل ودي وأحبابي إلىٰ آخره، فإن الشخص لا يحب إلا من جانسه ولا يَوَد إلا من كان بينه وبينه مؤانسة .

وفي هذا الكلام إشارة إلىٰ أنه رضِي الله عنه من جملتهم وطينته من طينتهم، وما تقدم منه في التواضع والانكسار دليل علىٰ التحقيق في هذا المجد والفخار كما تقدمت الإشارة إلىٰ ذلك.

فنسأل الله تبارك وتعالىٰ أن يسلك بنا أحسن المسالك، ثم دعا وسأل أنه لا يزال شمله مجتمعا بهم في الله تعالىٰ، وذنبه مغفورا، ونحن نسأله أيضا إتمام الصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد المختار خير من أوفىٰ ومن نذر، ومن أكرم الجار وعلىٰ آله وصحبه السادة الأبرار والتابعين وتابعيهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

وهذا الرقم لمن تعطش ليله في معاني هذه الأبيات، وإلا فنحن معترفون بالعجز والتقصير عن معانيها، وإنما الأعمال بالنيات، والله تبارك وتعالى أعلم.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
ترجمة سيدي أبي مدين الغوث	69
ترجمة الشارح سيدي ابن عطاء الله السكندري	74
متن القصيدة	77
شرح القصيدة	85

مكتبتنا العلية

شيخ الطريقة

نور الدين علي جمعة

الشافعي المصري

الصديقية الشاذلية